الفصل الرابع
المقابلة الحاسمة وفتح الأبواب

لست محتاجًا لعطف أحد «درس للحياة»

هذا ما نشأت عليه وما تعلمته وما وَقَرَ فى نفسى وما جاءنى فى صورة أمر واضح وصريح، سواء بالحال أو بالمقال، من والدى منذ خرجت للحياة. وكان أشد ما يحرص عليه أن يقضى تمامًا على صورة العاجز، كما كان يقال وتتفوه بها أفواه الناس، عندما يصفوننى فى موقف ما وتتبعها مصمصات الشفاة والصوت الذى يخرجه الفم من فرط الأسى على الصورة التى تراها العين ولا تحتملها لهذا الذى يحتاج إلى مساعدة الآخرين، أو صورة الطفل البركة الذى تستدر به البركات، فكل من يراه يتمسح فى ثيابه أو يُقبل يديه أوهذه الأشكال من الجهل بالدين والعقل والفطرة السليمة من الناس، والتى كانت منتشرة ومازالت لها آثار فى حياتنا المعاصرة. وهنا يجب أن نفرق بين هذه الصور الكريهة وبين استجلاب البركة بسؤال الصالحين الدعاء والتقرب إليهم وحسن معاملتهم والتماس مجالستهم، لأن القرب من الصالحين فلاح. ومنذ عقلت، وأنا أبذل الجهد بقدر ما أستطيع حتى أتصل بمن أرى فيه

صلاحًا وتقى وقربًا من الله أطلب منه الدعاء، وأفعل ذلك فى جميع شئونى ولا أرى فيه خروجًا عن الدين الصحيح والعقل الواعى والفطرة السليمة. أما أن أتبرك بفلان وأجعل منه وسيلة وزلفى لا أصل إلى الله إلا عن طريقه بحيث يكون هو الباب فهذا ما فهمته من النهى الجازم والصريح من أبى فى هذه الفترة.

ولا أنسى موقفًا لأحد الناس اقترب منى وأمسك بيدى وأراد أن يقبلها، فعنفه أبى بل زاد فى الموقف فأبعده عنى وتوعده إن فعلها سيوجعه ضربًا. من هذا الموقف ومن معاملته السوية معى التى لا تختلف عن إخوتى الذين انضم إلينا رابع وهو أخى محمد؛ فكان لا يفرق فى المعاملة ولا يعمل أدنى حساب لظروفى، إذ كان يريد أن يستقر فى نفسى أنك مسئول أمامى تمامًا كإخوتك، وأن الخطأ ستعاقب عليه والصواب ستكافأ وتُثاب عليه.

وأذكر واقعة لا أنساها ما حييت وكانت فى سن خمس أو ست سنوات، حيث كان هناك فرح لواحد من عائلة الفلاح الذين كانوا فى هذا الوقت يسكنون المنطقة معنا، وكان العريس يحبنى كثيرًا ويلاعبنى كلما كان يمر بنا فى الطريق أو أثناء اللعب أو إذا صادفنى فى المسجد، وكأنها كانت صداقة بين هذا الشاب وبينى، وفى يوم عرسه حيث تجمع الناس وهو يمشى بين أصدقائه وأحبائه لمحنى فتركهم وجاء إلىَّ وأخذنى من بين جميع الأطفال، منهم أخواى حسن وياسر، وأدخلنى البيت وجاء بطعام وأطعمنى بيده وانتهى الموقف، ورجعت إلى البيت فوجدت الموقف قد انتقل بالصوت والصورة إلى أبى الذى امتلأ غضبًا، فلما رأيت وجهه حاولت ونجحت فى الإفلات من نظرات عينيه وكان يجلس فى دهليز البيت كعادته.

وظننت أن الأمر قد انتهى، وأنها نظرات عابرة لغضب يخص غيرى، ولكن دب إلى نفسى الرعب وأحسست أن شيئًا كبيرًا قد حدث، وفى أثناء ذلك تذكرت عزومة الفرح ودعوة العريس، وفاجأنى أبى بالسؤال: أين كنت؟ فتلعثمت ولم أستطع أن أرد فقال: أنت كنت فى الفرح، فأشرت برأسى نعم، ثم قال: والعريس أخذك أمام الناس جميعًا ووضع لك الأكل وهو الذى أطعمك بنفسه، وظل يرددها عدة مرات، ثم انهال علىَّ ضربًا لم أره منه فى حياتى إلا فى هذه الليلة. وبينما كان يلهبنى بسياط ضربه المبرح كان يردد قوله: «أمام الناس»، وبعدما تعب من الضرب وبعدما بدأت روحى تذهب مع البكاء وتأتى وأصبح النفس الداخل إلى صدرى والخارج منه من أثر البكاء والصراخ ثقيلًا، علا صوته وقال: لست محتاجًا لعطف أحد ولا تسمح لنفسك أن تكون محلًا للشفقة ولا تجعل الناس تنظر إليك فى موقف ضعف فأنت لست مختلفًا عن الناس.

هذه الليلة وهذا الموقف حُفرا فى نفسى واستقرا فى كيانى، وتعلمت ألا أسمح لأحد أن يتبرع بمساعدتى إلا إذا طلبت أنا المساعدة، بحيث تكون حسب ما يتطلبه الموقف، وتعلمت أن أشكر من يعرض المساعدة وأعتذر عن تقبلها ما دامت فى مقدور نفسى. ويحدث هذا كثيرًا خصوصًا فى حفلات الطعام أو عند شرب أى من المشروبات، ولو أحسست أننى سألاحق بالعيون فإنى أعتذر عن الطعام والشراب تنزهًا عن وضع نفسى فى موضع شفقة أو عطف لا يروقان لمن علمه أبوه «أنك لست محتاجًا» لعطف أحد، ويجب أن تعتمد على نفسك ولا تركن إلى الناس إلا فيما لا حيلة لك فيه ولا بد منه.. هذا درس حياتى الذى تعلمته فى هذه الليلة بعلقة ساخنة لم تتكرر، لأن الدرس قد استوعبته النفس وأصبح سلوكًا ومنهجًا فى الحياة.

الطبلية ولمبة نمرة خمسة

هذا الزمان عشته وأنا فى سنوات عمرى الأولى قبل دخول المدرسة، فى نهاية الستينيات وأوائل السبعينيات من القرن الماضى، حيث كان بيتنا الذى كنت أعيش فيه مبنى من الطوب اللبن «النىء»، وكان عرض الحائط كبيرًا يصل إلى نصف المتر حتى يكون متماسكًا من ناحية وحتى يحمى البيت من رخات المطر وهى تخط خطها فى الجدار الذى لو كان رقيقًا لسقط بفعل المطر عامًا بعد عام من ناحية أخرى. كذلك كانت الجدران السميكة ـ التى يلتصق بعضها ببعض بالطين الذى يعجن من التراب والماء ـ بمثابة جهاز تكييف، حانية لطيفة فى حر الصيف دافئة فى برد الشتاء. وكنت ترى الناس أمام البيوت فى الشتاء يوقدون النار فى وعاء من الصاج أو الحديد فى الخشب والحطب وغيرها من الوقود التى يعرفها الناس فى ذلك الوقت، لكى يستدفئوا بها ويدفئوا المكان الذى يجلسون فيه وينامون، وكانت هذه المدفئة تسمى «الرَّكْيَة». وأما فى الصيف، فقد كان الناس يخرجون إلى الساحات ويسمرون مع بعضهم البعض بجانب البيوت.

ومما علق بذهنى من صور فى هذه المرحلة المبكرة من حياتى فترة ما قبل الإفطار فى رمضان بساعة أو ساعتين، حيث ألواح الثلج التى يتجمع الناس حولها لكى يأخذ كل واحد منها نصيبه ويشتريها لكى يبرد بها الماء وكوب التمر الذى يفطرون عليه. ومن أظهر ما كنت تراه ولا تخطئه عينك البساطة وعدم التكلف والرضا المختومة صورته فى وجوه الناس وكائنة به معاملاتهم وثرية به قلوبهم رغم قلة ذات اليد.. من هذه الصور أن تطلب جارة من جارتها «بعضشى» من الملح أو «ندعة» زيت

كما كانوا يقولون فى هذا الوقت أو رغيفين عيش إلى أن تخبز، وجارتها تعطى برضا لأنها تفعل نفس الشىء فى وقت آخر.

وكانت توضع فى صالة البيت ـ الدهليز ـ اللمبة الجاز نمرة عشرة، حيث كانت جلسة أبى ـ رحمه الله ـ وأمى ونحن حولهما نجلس نستمع إلى الراديو، ويدور الحديث بالفكاهة مرة وبالحوار مرة وبالسؤال عما جرى فى يومنا من مشاكل مرة وبشكوى الأم التى كانت تعانى طوال اليوم من حركة أولادها الثلاثة التى لا تهدأ وما يتبع ذلك من توريط فى المشاكل، وقد يتخلل ذلك بعض القفشات من الوالدين أو من أبنائهما الثلاثة، هذا فى ليالى الصيف.

أما فى ليالى الشتاء فكان الكل يتجمعون فى غرفة واحدة، وتوضع الطبلية فى منتصف الغرفة، وهى عبارة عن قطعة مدورة من الخشب على أربعة أرجل بحيث تثبت على الأرض، وتكون محلًا لمائدة الطعام حيث تتحلق الأسرة حولها، وتكون أيضًا مكتبًا للمذاكرة وتحصيل الدروس التى بدأت فى هذا البيت مع حسن الذى أصبح فى الصف الثانى الابتدائى، وياسر الذى يليه فى الصف الأول الابتدائى، وكانت لمبة نمرة خمسة توضع فى منتصف الطبلية حيث يكون الضوء قويًا، ويجلس الوالد وعلى يمينه حسن وعلى يساره ياسر وتبدأ المذاكرة التى ترى فيها اللين أحيانًا وترى الشدة أحيانًا أخرى، وقد ترى فيها كفًا شديدًا يطرق على رأس أحدهما فيصطدم على إثره بالطبلية فينزل الدم من الأنف ويبدأ البكاء، وتستمر المناهدة بين الأب وابنيه طوال الساعتين أو الثلاثة، وتنظر الأم ـ رحمها الله ـ وهى جالسة على السرير، تفرح عندما ترى كلمات المدح والثناء، وتبكى فى نفسها عندما ترى اصطدام الرأس

بخشب الطبلية دون أن تصدر أى صوت، فصوت بكائها مكتوم حتى لا يتأثر بها أحد الولدين.

وكان الوالد ـ رحمه الله ـ شديد الحرص على التعليم وعلى المتابعة لكل صغيرة وكبيرة تخص الولدين فى كل ما يُحصِّلون من مواد دراسية رغم قلتها فى البداية.. وكانت جلسة المذاكرة تكاد تكون بقداسة الصلاة عنده، وكان هذا طوال عمره معنا حتى انتهينا من تعليمنا الجامعى، ولعل عدم إتمامه للتعليم جعله حريصًا ألا يفوت أولاده ذلك وأن يزرع فيهم حب التعليم، وكان كثيرًا ما يحمس نفوسنا بمآل من يتعلم كأن يرغبنا فى أنك ستصبح مهندسًا أو دكتورًا أو مدرسًا كالذى تراه فى فصلك. وكنت فى سن الخامسة أجلس أمام الطبلية بجانب أبى وأرى ما يدور بينه وبينهما، وحاولت فى هذه الفترة أن ألتقط بعض العبارات مما يردده أخواى حيث كان كتاب القراءة والمطالعة فى هذا الوقت عن عادل وسعاد، وكنت أردد كثيرًا العبارات التى ألتقطها، مثل عادل يلعب فى الحديقة وسعاد تلعب فى الحديقة، وهذه العبارات المكتوبة أسفل الصورة التى يراها التلميذ فتساعده على التخيل.

وكان والدى ـ رحمه الله ـ يجلس معى بين فترات مذاكرة أخوى ويسمع منى ما التقطه منهما أثناء المذاكرة، ويكون شديد السعادة حينما يرانى أردد ما سمعت منهما. ولعل وجود أخوى فى سنتين سابقتين عنى قد منحنى فرصة أن أعرف مواد الدراسة قبل أن يعرفها زملائى، ثم إن هذه الجلسات قد فتحت لى ولأبى بابًا، ففتحت لى نافذة للتعلم الأولى الذى يكون فيه الطفل متجاوبًا مع ما يسمع مما يعطيه الثقة فى نفسه بعد ذلك فى قابل الأيام، وأما أبى فقد فتحت له باب الأمل فى هذا الولد الذى كان مشغولًا دائمًا بأسئلة لم يدر لها جوابًا، مثل هل سيتعلم هذا الولد بشكله

هذا؟ هل ستنجح عملية تعليمه؟ كيف سيمسك الكتاب؟ كيف يكتب؟ كل هذه الأسئلة كانت تدور فى أعماق نفسه فجاءت هذه الجلسات الأولى لتفتح له باب الأمل فى هذا الولد الذى يحفظ ما يردد أمامه من عبارات وأناشيد لأخويه، ثم لإقباله الشديد على التعليم وحبه لجلسة المذاكرة، ثم بعد فترة وهو جالس فى جلسة المذاكرة وجد رضا يحاول الإمساك بالقلم بإصبعى رجله الشمال الكبير والذى يليه لتبدأ مرحلة جديدة.

القلم وقبضة الإصبعين «برافو يارضا»

لعل هذا الموقف من أهم العلامات فى المسيرة الحياتية على امتدادها، لأنه كشف عن وازع يحرك صاحب القدم الذى أمسك القلم، وازع بحثه على أن يكون فى واقع الحياة التى يعيشها البشر فاعلًا بما عنده من ملكة ابتكار تعوض ما فاته من نقص أراده له القدر، وهى فى نفس الوقت إشارة لمن حوله أننا أمام مثال لمن لا يرتمون فى حضن يأس عارض يقتل فيه الطموح ولا أمام أمنيات ليس لها فى واقع الحياة وجود.. عَلِمَ كل من حولى وخاصة أبى هذه الحقيقة، وكعادته لم يفوت فرصة حماس ابنه المتقد وإنما شجعه وبدأ معه، كيف يمكن أن يمسك بإصبعى القدم قلمًا يخط به على الورق ما يجعل الحياة تفتح الذراعين له مرحبة؟

كان الأمر صعبًا جدًّا فى البداية حتى إن الأب قارب على اليأس وخاف من فشل التجربة، فقال له: سنجرب فى وقت آخر، لكن رضا ترك أباه وراح يتدرب على الإمساك بالقلم ويعيد المحاولة بينه وبين نفسه؛ يضع القلم على الأرض ثم يمسكه بالقدمين ثم يفتح مابين الإصبعين ليدخل القلم ويستقر فى مكانه، وأخذ يحاول حتى أجاد تمامًا كيف تكون عملية وضع القلم بين الإصبعين سهلة وأصبح ذلك كل شغله.

وعندما أعاود التفكير فى هذا الموقف أعجب، هل يرجع الإصرار على النجاح فى هذه الخطوة إلى إدراك رضا لأهميتها؟ لكن كيف وهو طفل صغير لا يرقى فكره إلى تمثل المآلات والمرامى من الأفعال التى يأتيها الإنسان، وخصوصًا وهو فى سنوات عمره الأولى؟

أعاننى على الوصول إلى إجابة هذا السؤال موقف قفز إلى ذهنى للمعجزة البشرية هيلين كيلر، عندما تعرفت على العالم من حولها لأول مرة عن طريق معلمتها آن سوليفان، فكتبت فى كتابها «قصة حياتى العجيبة» تقول: «وقامت معلمتى بوضع يدى فى الماء المتدفق، وبينما كان تيار الماء البارد يتساقط على يدى راحت المعلمة تتهجى بلمساتها على اليد الأخرى ببطء أولًا ثم بسرعة كلمة «ماء»، وقد وقفت ساعتها هادئة وكل انتباهى موجه نحو حركة أصابعها، عندها تكشف لى أحد أسرار اللغة إذ علمت أن «م ا ء» تعنى ذلك الشىء البارد الرائع الذى كان يتدفق على يدى.. لقد أيقظت تلك الكلمة الحية روحى وأطلقتها من سجنها»، وتضيف هيلين كيلر: «لقد تعلمت فى ذلك اليوم عددًا هائلًا من الكلمات، أتذكر من بينها كلمات: «أب وأخت ومعلم». لقد كان من الصعب العثور فى الدنيا كلها على طفل أكثر منى سعادة حين رقدت فى سريرى فى تلك الليلة، ورحت أتقلب فى ألوان السرور التى جلبها لى ذلك اليوم.. وإذا بى لأول مرة أتطلع فى شوق إلى طلوع اليوم التالى».

هكذا كان الموقف مع رضا عندما نجح فى تثبيت القلم بين إصبعى قدمه الشمال، الكبير والذى يليه، ولأنه كان يعرف رسم الحروف والأعداد مما كان يراه مع أخويه فقد كانت الكتابة ورسم الحروف

وكتابتها سهلة بعض الشىء، وعَلِمَ أبوه بهذه المفاجأة المذهلة فكانت ليلة الاحتفال به. لكن كيف سيجلس وهو يكتب وكيف سينظر إلى ما يكتبه وهو بعيد عن عينيه؟ أجاب رضا عمليًا وفى نفس اللحظة، بأن وَضَعَ الكتاب الذى سيكتب منه أمامه ثم جلس ووضع رجله اليمنى تحت مقعدتيه وأقام رجله اليسرى كالزاوية القائمة ثم جاء بالقلم الرصاص وعلقه بين إصبعيه، فدهش أبوه كيف فعلت هذا؟ فقلت حاولت عدة أيام حتى نجحت الفكرة كما ترى. وبدا الأب متحمسًا جدًّا وأخذه فى صدره وهو يقبل رأسه وربت على كتفيه، وأخذ يردد كثيرًا وبصوت عالٍ: «برافو يا رضا برافو يا رضا»، وترك هذا الإطراء والمدح من الأب أثرًا لم يمح على مر حياتى، ذلك لأننى أدركت أهمية الخطوة ورمزيتها فى سبيل يعرف الطفل أنه سيكون شاقًا وصعبًا، وتكون هذه الخطوة لبنة قوية فى بناء الثقة فى نفسه وفى دفع العجز المتوهم من الناس تجاهه.

ورغم أن هذه المعانى تبدو بعيدة عن ذهن طفل فى مقتبل عمره ولكنها «غريزة حب الحياة» هى التى دفعت هذا الطفل لكى يعرف أهمية هذه الخطوة فى حياة كل العيون إليها شاخصة. هذه هى الإجابة عن سؤالنا السابق عن سر إصرار رضا على النجاح وأيضًا إصرار هيلين كيلر.

وبدأ الأب يعلم طفله كيف يكتب وكيف يُحسن خطه وكيف يضع النقط وكيف يصنع للفاء والقاف رقبة وكيف تختلف عن الميم، و...، واستجاب صاحبنا، بل كان يكتب برجله كثيرًا على تراب الأرض ما يستحيل عليه، حتى يدرب نفسه وينجح فى كتابته عندما يستقر القلم بين قبضة الإصبعين. وظل الطفل كذلك حتى وصل إلى مرحلة متقدمة

جدًّا، حيث استطاع أن يكتب اسمه واسم أبيه واسم جده: رضا عبد السلام حسن، ويكتب الحروف منفردة ويكتب أيضًا الأعداد، حتى أصبح يكتب ما يكتبه تلميذ فى أول سنة دراسية.

ومن الفكاهات التى كنا نتندر بها ونحن صغارًا، عندما يسأل بعضنا بعضًا مثلًا: خمسة زائد أربعة تطلع كام؟ فكان كل من زملائى يفردون أصابعهم العشرة ويقول الواحد منهم مشيرًا إلى أصابع إحدى يديه الخمسة ثم يطبقها ويعد الأربعة من اليد الثانية، أما أنا فكنت أشير إلى أصابع القدم وأقول الخمسة ثم أعد من أصابع اليدين الأربعة الأخرى وأنا أفردهما دون أى شعور بالحرج. وكان الموقف رغم ما يحمله من فكاهة إلا أنه كان تعبيرًا عن البحث الدائم عن البديل الذى لا يقل فى نتيجته وهدفه عن الأصل. ومازال هذا الثناء الجميل من هذا الرجل العظيم والدى ـ رحمه الله ـ يرن فى نفسى وتسمعه أذناى عبر رحلة الحياة كلها «برافو يا رضا برافو يا رضا».

إنهم يقتلون الأمل

كان تمكن رضا من الكتابة بالشكل الذى أنجزه وشجعه عليه والده السبب فى ثقة الجميع من قبوله فى المدرسة، وكان دخول المدرسة بمثابة العيد للطفل الذى يأتى عليه الدور لدخولها. فقبل الدخول، تستعد الأسر لكى تجهز أبناءها حسب الإمكانات فى هذا الزمان. فلبس المدرسة فى أول السبعينيات من القرن الماضى كان عبارة عن مريلة «تيل نادية» طحينية اللون بحزام من الوسط للجنسين، الأولاد والبنات، يلبسها الطفل طوال العام، ولم تكن هناك هذه الأشكال المختلفة والمتنوعة مما

يُفرض فى المدارس الخاصة والعامة فى وقتنا الحاضر، والتى يتنافس المجتمع وإدارة المدرسة وأولياء الأمور أنفسهم على المغالاة فيها. وكانت معظم الأسر فى ذلك الوقت لا تستطيع أن تُفَصِّل مريلتين، فكانت الأم تغسل المريلة يوم الخميس ليذهب بها ابنها إلى المدرسة يوم السبت. وكانت حقيبة المدرسة عبارة عن كيس من نفس قماش المريلة، ويكون له يدًا طويلة، يحملها الطفل على كتفه أو ظهره بعد أن يملأها بجميع كتبه وكراريسه، وكان يحملها غالبًا وهو منحنى إلى الأمام قليلًا لثقل ما تحويه الحقيبة التى كنا نسميها «الشنطة».

وكان المصروف اليومى فى هذا الوقت «تعريفة» أى خمسة مليمات، وعندما يكون الأهل أكثر يسارًا يكون «قرش صاغ» أى عشرة مليمات، وكانت التعريفة تشترى رغيف عيش وقرصين طعمية، وكان قرش الصاغ يوسع على الطفل إذ يتيح له أن يشترى حلوى مما يجلس بها بعض البائعين حول المدرسة.. وأول يوم فى دخول المدرسة، ترى المكان وقد شهد كمًا كبيرًا من الناس يأخذون بأيدى أبنائهم إلى فصولهم التى سيجلسون فيها طوال العام، ويطمئنون عليهم ثم يتركونهم.

هذه المشاهد لا يمكن أن تمحى من ذاكرتى لشهرتها من ناحية، ولأنها من ناحية أخرى شاهدة على فترة من الفترات التى كان فيها ـ رغم الفقر وقلة ذات اليد ـ حرص شديد من الآباء على تعليم أبنائهم ومتابعتهم. لذلك فإن هؤلاء الفقراء من أهل القرية خرج أبناؤهم إلى الحياة أطباء ومهندسين ومدرسين، وهذه كانت من حسنات جمال عبد الناصر المتفق عليها والتى يشهد له بها التاريخ المعاصر.

وقد شهد بيت صاحبنا من قبل فرحتين بدخول حسن وياسر المدرسة

عامًا بعد عام، والكل ينتظر دخول رضا للمدرسة. لقد كان والده يتوجس خيفة من عدم قبوله، ولأنه قريب من الأستاذ «جلال السمادونى» الذى كان مدرسًا فى المدرسة وكان صديقه، فقد سأله عن دخول رضا المدرسة فأمهله عدة أيام حتى جاء وقت بداية الدراسة، وذهب رضا مع الأولاد فى أول يوم ليفرح مع أخويه حسن وياسر بأول يوم مدرسة حيث عيد التعليم السنوى فى القرية.

ويفاجأ رضا ووالده أن اسمه غير مدرج ضمن من لهم حق الالتحاق بالصف الأول الابتدائى، وأنه يجب عليه أن يعود وليس له الحق فى دخول المدرسة، فثار الوالد، ولكن لم يلتفت إليه أحد، وبعد أن مر هذا اليوم الذى كان صعبًا جدًّا عليه بعد أن رأى من ابنه إقبالًا على التعليم، بل إنه يفوق من أنهى السنة الأولى الابتدائية من حيث كتابة الحروف والأرقام بإصبعى قدميه ثم بشخصه الذى ينبئ عن مستقبل على الأقل مقبول، فلماذا يُحرم من إعطائه الفرصة.

وظل هذا الشد والجذب عدة أشهر، حتى ضاعت السنة الأولى على رضا. وفى إحدى المرات سأل الوالد صديقه المدرس الأستاذ جلال السمادونى: لماذا يُحرم طفل بهذا الشكل من التعليم؟ ومن قال هذا؟ وأى عقل أو قلب يقبل هذا الكلام؟ هنا صرح له صديقه بأنه جاءهم أمر وزارى بحصر الأولاد الذين عندهم إعاقة ومنعهم من دخول المدرسة وعدم السماح لهم بالتعليم، وكأن هؤلاء قد سقطوا تمامًا من اهتمام وزارة التربية والتعليم فى هذا الوقت، فثار الوالد، ولكن الأستاذ جلال نصحه ـ بعد ما رأى رضا وقدراته ـ أن يأخذه ولده ويذهب به إلى وكيل الوزارة بالمنوفية فى مدينة شبين الكوم، ووصف له المكان، واستعد الوالد لهذه المعركة وهو يشعر أنها أهم معركة فى حياة هذا الطفل، حيث ستفتح له

المدرسة أبوابها ومعها سيفتح القدر له أبواب الرحمة والسعة وسيفتح له قلوب المخلصين من عباده، وسيبتليه فى المقابل بقلوب غلف وعقول عمى، لكن هذا قدره وقدر أبيه معه.

المقابلة الحاسمة

محطات فاصلة فى حياة كل إنسان تحددها ظروف الحياة التى يحياها، وتتفاوت فيها المواقف والأحداث والأشخاص، ولكن يبقى أنه تتحدد على نتائجها بشائر المستقبل الذى ينتظر صاحبه غدًا، فإما شروق كشروق الشمس وإما غروب وأفول كظلمة ليل الشتاء عندما يحل فى قريتنا الصغيرة.

صلى الوالد صلاة الفجر وجلس بعد أن ختم الصلاة يدعو الله ألا يرجع بولده كاسف البال حزينًا، وتذكر رضا حينما وُلد وتذكر كيف وضع الله حبه فى قلبه وقلب والدته، وكيف هيأ له وسيلة الحبو والوقوف، وكيف خرج إلى الحياة محاطًا بحب زرعه الله فى قلب معظم من يراه، ثم حرصه الشديد على أن يفعل كل شىء مما يفعله أخواه أو الأولاد من حوله. ثم قفز إلى ذهنه هذا الدعاء الذى دعا به وقت أن ولد رضا «يا رب أنت خلقته وأنت يا رب الذى تيسر له سبل الحياة» فدعا به، وظل يردد «يا رب يا رب»، ثم خرج ليذهب بابنه إلى شبين الكوم وكان قد مر على دخول الأولاد المدارس حوالى شهر فى سنته الثانية، بعد ضياع السنة الأولى التى رفضت فيها إدارة المدرسة دخوله. وأثناء الطريق، والسيارة تطوى الأرض طيًا بين أشجار الكافور على الجانبين، ظل الأب يتمتم بالتسبيح والتحميد ويدعو الله ألا يخيب ظنه.

وصلنا إلى مبنى المديرية، ودخلنا إلى مكتب الرجل، يومها لباس الوالد يومها لبس الجيش، وقال لمدير مكتبه إن لديه شكوى يريد أن يقدمها ويعرضها على وكيل الوزارة، فقال له: هل ممكن أن تكتبها وأعرضها عليه؟ قال له الوالد: إنه يريد أن يقابله وأن هذا الولد له ظروف خاصة كما ترى، وأنه يريد أن يعرض عليه المشكلة بنفسه، وأنه أتى بالولد معه لهذا الغرض، فسمح له بالدخول.

دخل الوالد والولد ورحب الرجل بهما، وكان يبدو على وجهه آثار الزمن حيث خطوط الجبهه وانحناءة الظهر القليلة ونظارته العتيقة تشى بذلك، لكن استقباله كان لطيفًا. وعندما رآنى أصابه تعجب ظهر فى شخوص عينيه تجاهى وفى سؤاله المباغت: الولد ده ابنك؟، فرد والدى: نعم هذا ابنى رضا، ثم هاجم الوالد الرجل بالسؤال الذى يحمل الاستفهام والاستنكار معًا: لو حضرتك عندك ابن بالشكل ده ترضى وتقبل إنه مايتعلمشى؟.. فسكت الرجل، فواصل الوالد كلامه وقال: لو حضرتك لم توافق سوف أذهب لوزير التربية والتعليم وإذا لم يوافق سأذهب إلى رئيس الوزراء وإذا لم يوافق سأذهب لجمال عبد الناصر وإذا لم يوافق سأذهب به إلى ميدان التحرير وأضربه بالنار لأقتله، لأن هذا الولد من غير تعليم كأنه ميت، ولأثبت لحضرتك أن الولد ممكن يتعلم وعنده القدرة اتفضل حضرتك ـ وأمسك بى الوالد وخلع حذائى ورفعنى على مكتب الرجل، وقال لى بعد أن وضع القلم الرصاص فى إصبعى قدمى أكتب، فكتبت رضا عبد السلام حسن مدرسة كفر الشيخ إبراهيم الابتدائية، فبهت الرجل ولم يصدق نفسه من هول الموقف من كلام الأب الموجوع بمستقبل ابنه ثم من هذا المشهد الذى لم ولن يتكرر فى حياته، أن

يمسك طفل فى هذا العمر القلم بهذه الطريقة ويكتب بهذا الخط السليم الصحيح المقروء الذى يبهر كل من يراه. هنا أمسك الرجل بورقة بيضاء وسحبها دون أن يتكلم وقد ارتسمت على وجهه سيما الرضا لما سَمع ورأى، وكتب يُقبل رضا عبد السلام حسن بمدرسة كفر الشيخ إبراهيم الابتدائية فورًا؛ فلم يصدق الوالد نفسه هنا دمعت عيناه، فقال له وكيل الوزارة: ابنك هذا تهتم به، فالذى يكتب بهذا الشكل وبهذه الطريقة لابد أن عنده الكثير. فشكره الوالد وخرج يتمنى لو أن له جناحين ليطير فرحًا بعد ما امتن الله عليه بهذا الفرج وبعدما فتحت المدرسة أبوابها لابنه الذى طالما حلم أن يكون تلميذًا فيها.

هكذا أثمرت هذه المقابلة قبول رضا فى المدرسة التى كان ممنوعًا منها، ليس بحكم القانون لأن الدستور والقانون يقرران الحق فى التعليم كحق طبيعى من حقوق الإنسان المعترف بها فى كل الدول ومنها مصر بالطبع وخصوصًا بعد ثورة يوليو، ومعلوم أن الدستور والقانون فى بلادنا مواد مكتوبة محكمة ورائعة من حيث الصياغة اللغوية فقط وليست كذلك من حيث التنفيذ والتطبيق والإنسانية الواجبة التى يعرفها البشر. وهذا ما حدث معى، إذ كيف تُصدَر تعليمات بعدم قبول من له إعاقة فى سلك التعليم؟! وكيف تفرق بسبب الإعاقة بين البشر؟! والحقيقة التى توثقت منها أن هذا الأمر كان يُعمل به فى المدارس، بدليل ضياع السنة الأولى من عمرى وجزء من السنة الثانية. ولولا حرص هذا الرجل ونظرته الواعية وقراءته لواقع مؤلم لابنه دون التعليم وخوفه على مستقبله لما تحرك، وليس كل الناس عندهم هذا الوعى وهذا الحرص وخصوصًا أنه فى ذلك الوقت لم يكن هناك الوعى الكافى بطرح هذه القضايا، لذا

فقد ضاع الكثيرون من هذه الفئة، ضاعوا بين جهل متفش مفاده أن كل من كان عنده إعاقة فى عضو من أعضائه لا يستحق أن يتعلم فى حين أنه الأولى بالتعليم! لأنه كما قال والد رضا إذا لم يتعلم كأنه ميت، فالتعليم هو الذى يخرجه من سجن الإعاقة الذى يصنعه المجتمع ويصنعه الجهل وتصنعه العقول المغلقة، التعليم هو الذى يقول له فى وضوح إنه صاحب حق لابد أن يتمسك به لأنه طوق نجاته فى مجتمع لن يرحمه إذا كان جاهلًا ولن يعطف عليه ولن يواسيه، التعليم هو الذى يفعل كل هذا. التعليم للمعاق هو أداة للعيش الكريم دون أن يعتمد على أحد، ولكن هل تغير شىء فى هذه النظرة وقد مر حوالى نصف قرن؟

الحقيقة أن الذى تغير فقط هو إتاحة التعليم، فلا يستطيع أحد أن يمنع أحدًا من التعليم، ولكن ما فائدة التعليم فى مجتمع يتحكم فيه عجز متأصل فى جذر العقل المصرى، يوهم أصحابه أن من لديه إعاقة ليس له حق إلا فى الأماكن الهامشية فى المجتمع. ويمكن أن يخطب المسئول بأحقية المعاق فى شغل الوظائف كلها، ويلقى بالكلام الكبير، ويذكر العظام من هذه الفئة كطه حسين وغيره، وهو كلام ليس إلا حروف تخرج فى كلمات فارغة من المضمون، لأنها غير مشمولة بالقناعة ولا محملة بالوعى، ولكنها كلمات حُبلى بعجز متأصل فى الفكرة نفسها: أن الإعاقة للشخص تعنى موته المجتمعى، فالوظائف الهامشية والكلام الأجوف هو ما عند كل مسئول فى هذا البلد حتى ولو قال كلامًا كبيرًا، فهو كما قال الشاعر:

يعطيك من طرفِ اللسانِ حلاوةً ويروغُ منك كما يروغُ الثعلبُ

لذا أصبح على كل من لديه إعاقة أن يجهز نفسه لحياة ليست سهلة،

من حيث الحق فى الحياة بكل ما تعنيه كلمة الحياة فى الوجود وفى إتاحة الفرص وفى المكان والمكانة، وفى التقدير المادى والأدبى، وفى كونه إنسانًا يريد أن يعيش كما يعيش البشر فى العالم الذى يحترم الإنسانية والإنسان.

أبلة فادية

رجع رضا مع أبيه بعد هذه المعركة التى انتهت بما كان يتمنى هو وأبوه لكى يجهز نفسه لدخول المدرسة. لقد كانت المريلة معدة من العام السابق وها هى جاهزة لكى يدخل بها فصله الجديد بعد مرور أكثر من شهر فى السنة الثانية، وكذلك الشنطة القماش من نفس نوع المريلة، ووضعت فيها كراستان وقلم لكى يكتب به كما تعلم بإصبعى قدميه ولم يكن يعلم أن هذا محال فى الفصل. كان دخولًا أحاطه شىء من الاحتفال بالزائر الجديد الذى كان حديث البلد على مدى عام، وانقسم الناس بشأنه، فمن قائل كيف لهذا الولد أن يتعلم وهو بهذا الشكل؟ وآخر جاء لوالده على سبيل النصيحة يقول له أنت بهذا ستسبب له العنت والتعب والنتيجة أنك تحرث فى الماء وعليك أن تعوله وبعد حياتك يعوله إخوته، وثالث يقول ليس له وسيلة للكتابة وكيف يقلب الورق؛ وكيف وكيف؟.. إن كل واحد من هؤلاء إنما يعبر عن نقطة من نقاط العجز يراها فى نفسه قبل أن يراها فى طفل يريد للحياة أن تسير به وهم لايريدون. إن هذا الفريق كان موجودًا وكان منهم بعض الأقارب الذين ظنوا أن التعليم عبء على مثل هذا الطفل.

وعلى الجانب الآخر كانت هناك مشاهد رائعة من أصحاب الوعى اليقظ والقلب الحى والعقل السليم والمنطق الذى لايُرد، وهؤلاء كانوا

عونًا لأب عزم على أن يُعلى من قيمة الإنسان فى صورة ابنه الذى رأى فيه مشروع حياة إنسانية فذة وناجحة. جاء أحد هؤلاء بسيرة دكتور طه حسين وحكاها لوالدى الذى كان يعرفه لكن ليس بهذا الكم من المعلومات التى أراد بها هذا الرجل أن يقوى عزيمة والد الطفل. وكذلك هذه السيدة التى لم تتعلم ـ ولكنها عُرفت بحكمتها وصواب رأيها ـ ورأت كيف يعيش رضا حياته معهم، فقالت لوالده: «حياة رضا فى التعليم ولا تفرط فى ذلك»، وقالت له كلمة حكيمة وعميقة: «التعليم إيدين لرضا فى الحياة». وكذلك أصدقاء الوالد من المدرسين الذين كانوا عونه فى هذه القضية، وأهمهم الأستاذ جلال السمادونى الذى كان صاحب خطة الهجوم على وكيل الوزارة للحصول على الموافقة بعدما صرح لوالد الطفل بأنه ممنوع من التعليم إلا بورقة مصرح فيها من وكيل الوزارة بدخول رضا المدرسة بوضوح.

ها قد جاءت الورقة، وها قد دخل رضا فصله فى مشهد لا يُنسى ولا يُمحى من ذاكرة الأيام، إذ تحولت وجوه التلاميذ والمدرسين والعمال فى المدرسة إلى هذا الزائر الجديد الذى جاء للدراسة بعد طريق طويل، وإن كان الكل يعرفه خارج المدرسة. وقد تباينت النظرات الأولى، فمرحب مستبشر ارتسمت على وجهه بشارة الأمل للوافد الجديد، ومستاء ظهرت على وجهه هالة من الرفض واضحة فى تأففه النكد، والكثير لم يكن على وجهه علامة للرفض أو للقبول ولكن انتظار لما يحمل الغد لهذا الوافد الجديد.

ولأن أقدار الله لا تحمل إلا الخير للإنسان فى حياته، ولأن الدنيا لم تخل ولن تخلو من أصحاب القلوب التقية النقية الصافية الرحيمة، ولأن التعب لهذا الطفل الصغير ولأبيه المكافح المناضل لابد له من واحة

ينعم فيها بظلها الرطيب، كانت هذه السيدة التى سكن الهدوء وجهها وطمعت الطيبة فى قلبها فجعلته سكنًا لها، هذه السيدة التى استقبلتنى كأم تحمل عن وليدها كل ألوان التعب، وكمعلمة تصنع من صاحبنا تلميذها النجيب، ومربية تنسج بالفعل نسيجًا محكمًا لأخلاق جيل يحمل فى عقله وقلبه صورة للحياة عندما تستقيم بالخلق. إنها «أبلة فادية» التى كانت معلمة الفصل الذى كنت فيه، وكان النظام وقتها أن مدرس السنة الأولى الابتدائية كان مسئولًا عن جميع المواد الدراسية، فكان يُعَلِّم المطالعة فى كتاب القراءة والحساب فى كتاب الحساب فكانت أبلة فادية معنا لمدة سنتين.

وفى بداية دخولى المدرسة، برزت مشكلة كبيرة وهى أننى أكتب بإصبعى قدمى، ويحتاج هذا أن أجلس على الأرض كى أستطيع أن أكتب، وهذا محال فى فصل دراسى يوجد به نظام للأرائك التى يجلس عليها التلاميذ، فحاولت أبلة فادية معى، لكن لم يفلح كلانا فى حل المشكلة، وظلت معى فترة تبحث عن حل، فحاولت أن تجلسنى على الأرض لكى أكتب فلم تنجح التجربة، فحاولت أن تجلسنى على الأريكة التى نجلس عليها فلم يستقم جسمى وكدت أقع. لم تجد أبلة فادية بدًا من اللجوء إلى الوالد الذى لم يجد حلًا فى نهاية الأمر فاستسلم لواقع لا يستطيع أن يغيره، واندثرت مع الأيام طريقتى المبتكرة فى الكتابة بالقدم، لكنها فتحت طريقًا آخر للنجاة بالكتابة بأسنان أطبقت على القلم لكى يكتب صفحة من صفحات النجاة من السقوط فى الفشل.

إن الشاهد هنا هو حرص أبلة فادية على هذا الطفل الذى كانت تعرف قصته، وها هى تغرس فيه غرسها الطيب. ولا أنسى ما حييت عندما كانت

تنظر إلىَّ وتنادى علىَّ فى الفصل أثناء إلقاء النشيد وهى تشجعنى بوجهها وترفع عينيها كالذى ينتظر ممن يناديه عملًا عظيمًا. ولا أنسى وكذلك لا ينسى أبناء جيلى رفق هذه السيدة الكريمة معنا فى التعليم، فكانت تتعامل معنا معاملة الأم مع أولادها لذا كنا نحبها ونحترمها. وكانت إذا أرادت أن تعاقب كان لها أسلوب تربوى قمة فى التأثير، فكانت إذا أخطأ أحدنا تظهر على وجهها علامة حزن تتبعها بغضب يظهر فى حدة نظرات العينين، ثم تقترب ممن اقترف الخطأ وترفع يدها عاليًا كأنها ستنزل بها على ظهره بقوة، ثم تبطئ حتى تلامس بحنان ظهر من أخطأ، فيحس أحدنا ساعتها أنه يخجل من نفسه، لكن عندما كان يعاود الخطأ كانت تضرب ضربًا خفيفًا على كف اليد وكأنه رمز للعقاب فقط.

هكذا كانت هذه السيدة الجليلة والمربية الفاضلة واحدة من جيل المعلمين والمعلمات الكبار، الذين حفظوا القرآن الكريم فى صغرهم فتربوا على آدابه ووعوا أحكامه ودانت لهم فضائله، ووقفوا فى ميادين التفسير والحديث النبوى الشريف لكى ينهلوا منها، ثم واصلوا تعليمهم العام ودخلوا بفضل حفظ القرآن دار المعلمين، وخرجوا لكى ينشئوا أجيالًا تعيش الدنيا بقيم هذا الدين، وكانوا هم صورًا ماثلة أمامنا للأمانة والرفق واللين والمعاملة الطيبة. كانت هذه السيدة التى مازالت ابتسامتها الرائقة الجميلة ومشيتها المنتظمة الهادئة ولسانها الذى يرسل الأمن والأمان للجميع ماثلين أمامى. ولا أنسى عندما كانت تقابلنى مع أمى أو أبى وتبادرهما بأن رضا شاطر لكن «شقيييى قوييى» وكانت تطيل فى اليائين ثم تدعو لى أمامهما.. مدين لهذه السيدة الكريمة بفضل المقابلة الطيبة والحب المخلص والتربية والتعليم اللذين كانا أساس هذا

البناء المحكم، مدين لها بنظرات التحفيز والتشجيع والمساندة والمعاونة، مدين لها بالفضل وأسأل الله لها طول العمر وراحة البال.

داخل الفم معجزة

كنت فى السنتين اللتين قضيتهما مع أبلة فادية مستمعًا فقط، فقد حرمتنى الظروف فيهما من وسيلة الكتابة التى كنت أتقنتها بإصبعى قدمى، إذ أصبحت مستحيلة فى فصل دراسى، وكأن أقدار الله سبحانه كانت تخبئ لى كنز الحياة الذى سيفرش أرض المستقبل بذهب القبول ولؤلؤ الرضا. لكن لكل شىء ثمنه الذى لابد أن يدفعه صاحبه، وهذه سُنة الحياة التى يجب أن يتقبلها الناس.

فخلال هاتين السنتين، أجمع كل من يرى هذا الطفل أو يدخل فصله أو يسأل معلمته الموكلة بالتدريس له ولزملائه جميع المواد ـ كانت تتركز فى المطالعة والحساب ـ على أنه يجب أن يواصل تعليمه لأن لديه القدرة على ذلك، فهو تلميذ يعتبر من النابهين إذ يحسب كما يحسب زملاؤه؛ هم يستخدمون أصابع أيديهم العشرة فى العد، وهو يضم أصابع رجليه مع الخمسة أصابع فى كلتا يديه، وأبلة فادية تسأله فى مسائل الحساب وهو يجيب شفاهة فقط لأنه لا يملك وسيلة للكتابة، وكانت درجاته التى يجب أن تدرج فى قائمة الفصل لا يمكن قيدها لعدم وجود الورقة التى تثبت الدرجة. وهو يقرأ جيدًا بل هو من أظهر زملائه فى هذا الشأن، وكان مشهورًا بصوته العالى خاصة عندما يلقى الأناشيد، وكانت أبلة فادية تشجعه على ذلك وتنمى فيه هذه الموهبة، حتى إنهم اختاروه فى السنة الثانية لتحية العلم.

كم هى رائعة هذه الصورة فى بث الوطنية. التحلق حول العلم والنظر إليه ووضع اليد اليمنى عند حافة الرأس من جهة اليمين والوقوف باستقامة، تحية وتقديرًا لهذا العلم الذى يمثل رمزًا لوطن نعيش فيه وخاصة ونحن صغار، وما يمثله ذلك من الوحدة والتآلف بين أبناء الوطن. كم كنت سعيدًا أننى ممن اختارتهم إدارة المدرسة لتحية العلم، لينطلق صوتى «تحيا جمهورية مصر العربية، تحيا جمهورية مصر العربية» وتردد المدرسة كلها ورائى. كان ذلك يعنى الكثير والكثير لطفل فى مثل ظروفى، من إحساس بالوجود والتأثير، ويؤكد للمدرسين والمدرسات أن هذا الطفل مستحق لشرف إكمال مسيرته التعليمية ولو بغير وسيلة للكتابة.

لاشك أن العجز عن الكتابة يمثل عقبة كبيرة، لكن هل سيستسلم والد الطفل؟ وهل سيستسلم الطفل لهذا الوضع الذى يتضمن تهديدًا صريحًا فى المستقبل؟.. كانت السنة الثالثة الابتدائية مع معلم آخر هو الأستاذ حسنين القاضى، هذا الذى وصفته فى صورة قلمية اعتزازًا بشخصه منذ فترة طويلة، أعرضها هنا كاملة لكى تكون تكريمًا لشخصه وأيضًا، وصفًا لفترة حرجة فى حياتى حيث جرى البحث عن وسيلة للكتابة، ثم لتدرك كيف كان مدرس المرحلة الابتدائية فى هذا الزمان. قلت عن مدرسى وعن مجموعة ممن عنونت لهم بهذا العنوان:

الأستاذ حسنين محمد حسنين

إمام قدوة ومعلم مثال

«هالة من الاحترام والتوقير والأدب تحيط بشخصه، وسيما الجد والصرامة المشمولة بعزة نفس ظاهرة لا تخلو من تواضع يظهر فى لفظ أو

إيماءة أو فى بسمة خفيفة موحية، وقامة ممشوقة محمولة بقيم لدين يستقر فى النفس يملك على صاحبه كل ناحية من نواحى حياة يعيشها، هكذا كان.. هذا الرجل العلامة فى الاتزان والاستقامة فى الخلق والاعتزاز بالنفس بلا كبر ولا من.. هذا الرجل الذى رضيه الناس إمامًا للصلاة أكثر من ربع قرن يقف قائدًا بهم إلى ربهم بصوت يجلله الاحترام ويحسنه العلم ويجوده الحفظ ويحوطه أدب الناس مع الإمام المثال.

عرفته منذ صغرى لصداقة وأخوة جمعت بينه وبين والدى ـ رحمه الله ـ فكنت أهابه وأربط على نفسى رباط الجد واليقظة عندما أحدثه، لجلال كنت أحسه فى نفسه وشىء من الصرامة فى وجهه، وما أن أتكلم حتى يفتح لى نوافذ روحه الجميلة ونفسه الطيبة، وإذا بالجد والصرامة تتحولان إلى حنان أب وعطف معلم ونصيحة مرب، فأنطلق بعفويتى معه، ومن عجب أننى ظللت هكذا معه، إلى أن توفاه الله. وكان أحيانًا يفتح بابًا للترويح معنا، وأذكر ذات مرة أنه سأل أحد زملائنا فى مرحلة الابتدائى سؤالًا عن استخدامات ملح الطعام فقال هذا الزميل بعد أن وقف قليلًا: فى الشوربة يا أستاذ، فإذا به يضحك معنا وأخذ يذكرها حتى كبرنا.

وأذكر له ـ رحمه الله ـ أنه كان يدرس لنا فى بداية كتابتى بفمى، وكان يشدد علىَّ وأحس أنه يعنتنى، ولكن بعد أن تحسن خطى فى الكتابة بحيث أصبح من أحسن الخطوط أدركت كيف كان فضله علىَّ، وهذا بحق أسلوب تربوى متقدم أن تستخرج ما عند تلميذك من قدرات أنت تدركها عنده وكذلك فعل معى، وكذلك ظللت أذكر فضله فى هذا الشأن. الأستاذ حسنين وَقَّع بنفسه لنفسه على كل من تعلم على يديه

توقيع الإخلاص والتجرد والتفانى فى أداء رسالة التربية، التى استقاها واستخرج أصولها من قرآن حفظه وتعلمه وعمل به وأم الناس بآياته، ورسالة التعليم التى استقاها من دراسته فى دار المعلمين التى أخرجت عيون المعلمين الذين ربوا لمصر خير رجالها.

الأستاذ حسنين كان شخصية جادة تحمل نفسًا كبيرة تعاف الصغائر وتستقبح الكبر وتكشف الزيف، لكنها كانت لا تصرح وإنما كانت تضع نفسها سدًا لكل من تسول له نفسه هدم قيمة أو جرح مبدأ أو شغل الناس بما لا يفيد.. الأستاذ حسنين، ظهرت عند مرضه شخصية رجل نورانى وجهه كان فيه شىء من نور، كنت أراه إيمانًا عميقًا وصبرًا جميلًا ورضًا كاملًا بما قدر له، وإقبال على الله بيقين يظهر لمن يدقق فى نتوءات وجهه الراضية المرضية وعينيه الآمنة المطمئنة. وقد عرفت أنه كان يختم القرآن كل بضعة أيام وهو فى حال المرض.

هذا رجل ظللت أملأ عينى منه احترامًا وإجلالًا وأدبًا، وظللت أُقدر له أنه علمنى فى فترة صعبة من بواكير حياتى وكان تشديده علىَّ سببًا فى مجانبة الفشل ومصادقة النجاح وبلوغ الهدف، وأننى ظللت وغيرى نقف وراءه لكى نعبد الله متخذينه ونحن راضون به ممتنون له إمامًا للصلاة أكثر من ربع قرن من الزمان. عليك سلام الله أستاذى ومعلمى وإمامى فى الصلاة وعليك من الله الرحمة والغفران».

هكذا كان الرجل الذى عشت معه هذه السنة الفاصلة، فقد صدر الأمر صدر أنه لابد من وسيلة للكتابة لكى يواصل رضا تعليمه. وأذكر هذه الليالى التى كنا نتحلق فيها حول طبلية المذاكرة أنا وإخوتى وأبى، تنتصف الطبلية اللمبة البنور نمرة خمسة، والوالد يحاول معى ويطلب

أن أمسك القلم بإصبعىّ يدى الشمال وأحاول أن أكتب، وفعلًا أمسك بهما القلم وأكتب لكن بصعوبة شديدة، وبعد عدة كلمات لا أستطيع أن أكمل لأن قوة أعصاب الإصبعين أضعف من أن تتحكم فى القلم وتوجهه. ومازلت استحضر صورة هذا الرجل العظيم الذى غلبه الهم بسبب التهديد بعدم مواصلة ابنه للتعليم والنظر إلى نتائج ذلك، وهو قد كافح من أجل أن يدخل المدرسة.

وخلال هذه المحنة، أذكر موقفًا لأبى مع الأستاذ حسنين فى بيتنا بعد صلاة العصر التى أم الناس فيها للصلاة، عندما قال الأستاذ حسنين وهو يجلس على كرسى قديم كان يتوسط دهليز بيتنا وهو يحمل كوب الشاى الساخن بين يديه: الولد شاطر لكن لابد من وسيلة للكتابة، فسأله الوالد: فإذا لم نستطع؟ فنظر إليه نظرة توحى بتوقف المسيرة وأطبق شفتيه وكأنه يصدر حكمًا بالإعدام على تعليم الولد. وكانت أمى تشاهد الموقف فخففت وقع كلام الرجل القاسى بأن ذكرت الوالد بما كان من عقبات وأن الله سبحانه قد كتب الفتح من عنده، وبدأت تحكى مواقف الولادة والحبو والوقوف والقبول بالمدرسة فنشرت بحديثها شيئًا من الأمن فى نفس الوالد والولد الذى يجلس بجانب.

ثم جمع الجميع بالليل طبلية المذاكرة، ولا أذكر من الذى أشار علىَّ بأن أمسك بالقلم بفمى، هل هو أبى؟ قد يكون اقتراحًا منه، لكن كل ما أشار به أبى فى مسيرة الحياة كنت أذكره لأنه غالبًا ما يكون علامة فى تاريخ حياتى، ولا أذكر أنه أشار إلىَّ بهذه الوسيلة. هل يكون اقتراحًا من أحد المدرسين؟ هذا لا يمكن أيضًا، لأن الدائرة اشتملت على؛ اثنين أبلة فادية وقد أنهت مهمتها ولم أكن قد كتبت بفمى بعد، والأستاذ حسنين

وهو لم يبدأ مهمته بعد.. إذًا من أين جاءت الفكرة؟ ومن الذى اقترحها؟ أغلب الظن أنها كانت إلهامًا من الله سبحانه أو سببًا ألقى به القدر إلى هذا الطفل لكى يسعده ويسعد أباه وأمه، ولعلها كانت تجربة من التجارب التى كان رضا يقوم بها بينه وبين نفسه حيث كان والده يحثه على إيجاد وسيلة للكتابة يستطيع بها أن يواصل رحلته بعد أن أحس الطفل من الكلام حوله أنه مهدد بالطرد من المدرسة. إذًا فهى تجربة نجحت فتشبث بها الطفل، وظل يجرب حتى أتى أباه وبشره بها فتحمس الوالد لها. وبدأت الأسنان تطبق على القلم والشفتان تضمان عليه من الأمام، وها هو يكتب بصعوبة فى أول الأمر. لا أدرى ولا أذكر مَنْ أشار علىَّ بالفكرة أو بالتجربة، لكن الذى يصل عندى إلى درجة اليقين أن هذا العطاء كان نتيجة لالتماس الطريق لمواصلة رحلة التعليم، التى كانت الشغل الشاغل لوالد الطفل والتى نقلها لولده الذى لم يفوت الفرصة.

جلس رضا ووالده لكى يتدرب حتى يكون الخط مستقيمًا ومقروءًا، وهذا أمر يحتاج إلى إيضاح، إذ كان فى البداية صعبًا للغاية، خصوصًا أن مدرس الفصل كان يتعامل مع كتابة رضا كأنه تلميذ عادى دون أن يضع فى حسابه أنه كالطفل الذى بدا توًا فى تعلم الكتابة، لذا كان المدرس عندما يرى الخط يحتاج إلى تدقيق كان لا يتعب نفسه فى قراءة الإجابة. لذا تراجع مستوى رضا فى الشهور الأولى من هذه السنة التى بدأ فيها الكتابة بفمه، لكن كعادته ظل يبحث كيف يجعل خطه مقروءًا ومفهومًا دون أن يدقق الأستاذ حسنين الذى أسدى إليه معروفًا من حيث لا يدرى، عندما لم يعمل حسابًا لظروفه فى هذا الوقت، فقد جعله هذا يبحث كيف يجد الوسيلة لكى يجوّد خطه وهذه هى المعجزة أو أشبه.

فى بداية كتابة رضا بفمه، كان يطبق على القلم الرصاص بين

الضرسين الأخيرين فى الفكين الأعلى والأسفل إلى اليسار، لذا كان القلم يهتز قليلًا مما نتج عنه سوء الخط. وكانت المشكلة الثانية أن خشب القلم الرصاص كان يمتلئ بريق فمه مما يجعله طريًا ويجعل التحكم فيه صعبًا، بل ونتج عنه ضمور الضرس الأخير نتيجة الضغط الدائم عليه بخشب القلم المتشرب باللعاب. وظل البحث جاريًا بين رضا ونفسه، مثلما كان يفعل فى جميع أمورة، فواتته الفكرة أن يستبدل القلم الرصاص بقلم حبر جاف. ثم جاءته فكرة أخرى، عندما نظر فى فمه جيدًا وتحسس تنظيم أسنانه وتفحص تجويف الفم، فرأى أن يستغل سِنَّةً فى منتصف أسنانه الأمامية كانت طويلة قليلًا فجعلها مسندًا للقلم من اليمين، واستخدم الشفتين ككماشة قوية ومرنة مع هذا المسند، ومن الوراء يدعم اللسان القلم من ناحية اليمين وحافة الأسنان من ناحية الشمال. بذلك أصبح القلم مرتاحًا فى الفم مع القوة والمرونة اللازمين لكتابة خط صحيح وجميل ومقروء، بل ومن أحسن الخطوط فى الفصل بعد ذلك.

وماهى إلا شهور قليلة حتى زالت الغمة، وأصبح الطريق مفتوحًا لهذا التلميذ الذى شاء القدر أن يسكن فمه معجزة من المعجزات التى يستطيع بها هذا الولد أن يواصل مسيرة حياته بلا توقف، وأن تكون هذه الوسيلة فى الكتابة مصدرًا للثقة وموئلًا للأمان من كل ما يحيط مستقبله من تهديد كان يتكرر ممن يتمسكون بالنظام والبيروقراطيات التى تريد أن تحرم طفلًا بهذا الشكل من حقه فى التعليم بحجة أنه لا يستطع أن يكتب. لكن ها هو جاء يمسك القلم بفمه، وكأنه يقول «لا مستحيل»، تلك الكلمة التى قالها لى أحد المتخصصين فى العلوم الشرعية عندما رآنى أكتب بالقلم بفمى، فقال هذه استحالة مطلقة، وانبرى يشرح أن عدم

وجود اليدين يجعل من الكتابة استحالة مطلقة، وعندما يحدث الفعل بهذا الشكل وهو الكتابة بالفم فهو تحقيق للاستحالة المطلقة، فسبحان من أعطى وقدر.

سنوات الدراسة وشخصيات لا تنسى

كانت قرية ومدرسة كفر الشيخ إبراهيم الابتدائية فى أوائل السبعينيات جزءًا من مصر الكبيرة المكلومة الحزينة، بسبب تداعيات نكسة 1967 وموت جمال عبد الناصر الذى تغير رأى كثير من المصريين فيه بعد النكسة، ومنهم والدى الذى كان معجبًا به كثيرًا ثم تبدلت تلك ال نظرة، لأن شيئًا ما فى شخصية عبد الناصر قد انكسر فى قلوب من أحبوه وتعلقوا به وصدقوه، هؤلاء البسطاء من المصريين الذين وجدوا فى عبد الناصر واحدًا منهم ابن واحد من المطحونين معبرًا عنهم وعن أحلامهم، فإذا به مغامر ينتهى به الأمر إلى هزيمة محطِّمة لكل الأحلام، وكسبت إسرائيل التى كان يتوعدها بالرمى فى البحر المعركة وأخذت تُقَتِّل جنودنا فى سيناء، وأصبحت الأخبار التى كذب فيها نظام عبد الناصر فى بداية الأمر فضيحة بعد أن اتضحت الأمور، لذلك لا تجد بيتًا فى مصر إلا وعمه الحزن. وأما صديقه الذى ائتمنه على الجيش فقد أخذ يتبرأ من المسئولية بل وينتحر أو يقتل على رأى آخر. لقد كان كابوسًا رهيبًا على المصريين وخصوصًا من وثقوا فى عبد الناصر.

وأذكر بوضوح ليلة موته، عندما جاء أبى من الجيش حزينًا كسيرًا لما رآه أمامه فى جنازة جمال عبد الناصر وعجب له. رجل فوق الستين

من عمره يلبس جلبابًا يبدو عليه أنه من الريف وهو يصرخ بأعلى صوته ويلوح بشال يمسكه فى يده ويقول «يابنى ياحبيبى» وهو يبكى ويصرخ كطفل فقد أباه أو أمه مشيرًا إلى الفقيد عبد الناصر. وسيدة يبدو أنها من الصعيد تولول وتطلق صوتها وكأن ابنها قد مات وتقول: «سايبنا لمين». هذا بعض ما رآه وسجله أبى من قريب، إذ يقع المعهد الفنى للقوات المسلحة الذى كان يخدم فيه والدى بجوار المسجد الذى دفن فيه الزعيم الراحل جمال عبد الناصر، مما أتاح له أن يشاهد هذه الصور شديدة الإنسانية فى هذه اللحظة التاريخية شديدة الأهمية فى تاريخ مصر الحديث، وما سجله العالم كله فى هذا الوقت.

وعندما حدث عبور 1973، كنت فى بداية الدراسة الابتدائية، وحدثت واقعة لا أنساها ـ تحققتُ منها بعد ذلك ـ عندما هاجم الطيران الإسرائيلى مطار أبنهس العسكرى القريب منا ورأينا الطائرات الإسرائيلية فى الجو، أذكر أن أمى وقتها أخذتنا فى حضنها ودخلت سريعًا إلى البيت كما فعل ذلك الأهالى جميعًا. وأذكر فرحة أبى الكبيرة وافتتانه بالسادات خصوصًا بعد الحرب، والدعاء فى المساجد لأولادنا وقنوت الفجر الذى كان الناس يدعون فيه ويطيلون فيه الدعاء، وخطب السادات التى كنا نسمعها من خلال الراديو.

وأذكر الأغانى الوطنية فى هذه الفترة التى كانت تلهب حماس المصريين وكنا نرددها ونحن صغارًا فرحًا بهذا النصر العظيم. ومن هذه الأغنيات أغنية المجموعة التى كتب كلماتها الشاعر عبد الرحيم منصور ولحنها بليغ حمدى، والتى كانت أول ما أذيع من أغنيات فى نصر أكتوبر، وقد قام بإنشادها خمسة عشر فردًا من العاملين بمبنى ماسبيرو للإذاعة والتليفزيون!!

بسم الله... الله أكبر، بسم الله، بسم الله
بسم الله... أذن وكبر، بسم الله، بسم الله
بسم الله... الله أكبر، بسم الله، بسم الله
بسم الله... أذن وكبر، بسم الله، بسم الله
نصرة لبلدنا بسم الله بسم الله
بإدين ولادنا بسم الله بسم الله
وأدان على المدنه بسم الله بسم الله
بيحى جهدنا بسم الله بسم الله
الله أكبر، أذن وكبر
الله أكبر، أذن وكبر
وقول يا رب النصره تكبرر

وكذلك أغنية «حلوة بلادى السمرة» التى غنتها الفنانة وردة وكتبها المبدع عبد الرحيم منصور ولحنها بليغ حمدى:

حلوة بلادى السمرة
بـــلادى الحـرة
بلادى السمرة بلادى
حلوة بلادى السمرة
بـــلادى الحـرة
بلادى السمرة بلادى
وأنا، على الربابه بـــغـنـى
م املـكـــش غـــير

إنـى اغنـى وأقــول

تعـيـشـــى يا مـصـر

تعيشى يا مصر

وهناك أغنية للمجموعة عندما أسمعها الآن وأنا فى العقد الخامس من عمرى أعود طفلًا بنفس المشاعر الغضة التى كانت تملؤنى، لمعانى كلمات هذه الأغنية وكأنى أحمل سلاحًا فعلًا وكأنى أحمل بيدى رايات النصر، هذه الأغنية من كلمات الشاعرة نبيلة قنديل وتلحين المبدع على إسماعيل، وأذيعت سنة 1972 وأعيد إذاعتها فى نصر 1973 تقول كلماتها:

رايحين رايحين
شايلين فى إيدنا السلاح
راجعين راجعين
رافعين رايات النصر
سالمين سالمين
حالفين بعهد الله
نادرين نادرين
واهبين حياتنا لمصر
باسمك يا بلدى..... حلفنا يا بلدى
جيشك وشعبك يرد التحدى
أرضك وزرعك..... شمسك وقمرك
شعرك ونغمك..... نيلك وهرمك
بدمى أفادى وأصد الأعادى
وافدى بروحى عيونك يا مصر

عشت هذه الأيام وأنا تلميذ فى المراحل الأولى الابتدائية، وأذكر أن الأستاذ جمال حسين مدرس التربية الفنية. قد رسم صورة كبيرة بطول وعرض نصف الحائط للرئيس الراحل محمد أنور السادات، وكانت صورة رائعة، فقد كان فنانًا مبدعًا فى رسم البورتريهات وأحدث نهضة فنية فى المدرسة فى هذا الوقت، وأقام جماعة للتربية الفنية كل واحد منهم يعلق على صدره شارة خضراء تفيد أنه واحد من هذه الجماعة وكنت أحدهم.

وأذكر فى سنة من سنوات الدراسة أن طلبت الإدارة عمل فريق للتمثيل، فقام الأستاذ جمال حسين باختيارى مع مجموعة من زملائى لهذه الجماعة. وكان ضمن نشاطاتنا موضوع قراءة بعنوان «العقل زينة»، كان كل عضو يتحدث فيه عن وظيفته فى الجسم، وكان اللسان يعقب على كل عضو، ثم يأتى العقل فى النهاية ليضع الشكل الأمثل للتعاون بين جميع الأعضاء، واختارنى الأستاذ جمال لدور اللسان الذى كان الأكبر، وقدمنا هذا العمل على مسرح فى شبين الكوم وحصلنا وقتها على المركز الأول، وشد انتباه المحكمين شكل الولد الذى أدى دور اللسان.. وهذا الموقف لاأنساه لما فيه أولًا من اهتمام بالمواهب وتنميتها فى هذا الوقت ومن التشجيع الذى رأيته من الجميع بعد ذلك.

وكنت دائمًا من المشاركين فى الإذاعة المدرسية، أقرأ القرآن أحيانًا وأُحَيِّى العلم أحيانًا، وأستعين بأبى فى كتابة كلمة فى ورقة يمسكها لى فى الطابور أحد أخواتى أو زملائى.

وكانت صلتى قوية ومتينة جدًّا مع أبناء جيلى على الرغم من حدتى

معهم أحيانًا فى المعاملة. ومن هؤلاء أخى وصديق الطفولة والصبا «المهندس الزراعى محمد على نوفل» الذى كان لا يدعنى عندما أمشى معه أحمل حقيبتى القماش، بل كان يحمل حقيبتى وحقيبته معًا رغم ثقلهما الشديد، وإذا كنا على غير وفاق كأن يكون هناك خصام طفولى لا يتركنى أحمل الحقيبة رغم ذلك، ولعل الصداقة التى بيننا ولم تشبها شائبة ترجع إلى أن جذرها قد زُرع فى بداية الطفولة والصبا حيث البراءة هى التى تبنى العلاقات المتينة بين البشر. ومن هؤلاء أيضًا «محمد جلال» هذه النسمة البريئة الجميلة فى الخُلق والخلق، الذى كان لا يمشى فى طريق إلا ويمسك بإحدى يدى القصيرتين ولا يتركها طوال الطريق أيًا ماكنا، وكنت أنا وهو نشكل نقاط الهجوم وإحراز الأهداف فى أى فريق نلعب فيه.. وأيضًا «أيمن حنضل» هذا الذى كنا نحتمى به من كل ما يمكن أن يسبب لنا إزعاجًا، فهو قوى الجسم وكان يخاف منه الجميع، وكان قائدًا من قواد الشلة يأتمر بأمره الجميع، وياويل من يلمس أحدًا من الشلة وخصوصًا رضا، وكان بينى وبينه احترام زائد ظهر بعد ذلك عندما كبرنا، إذ اتضحت فيه صفات الرجولة والأصالة بسؤاله الدائم عن كل زملائه، وبالتالى زادت علاقتنا حبًا ووداً على مر الأيام.. و«جاب الله» الذى لم أر قلبًا طيبًا مثل قلبه، وكنت معه دائمًا فى بيته الكبير الواسع، وكنت أحب جدًّا ساندوتش القشطة الذى تعطيه لنا والدته عندما نذهب فى الفسحة بين الحصص. و«محمد السيد» الذى سيصبح فيما بعد رفيق طريق العمر، وقد شاركته وشاركنى أيامى، ومواقف لاتنسى وأحداث كانت علامة فى حياة كُل منا، وله فى قلبى مكان يعرفه، لإخلاصه الذى أعرفه عنه ودينه الحى وأدبه وأخلاقه العالية.

كان هذا جزء من مجتمع عشته فى المدرسة الابتدائية مع زملائى، أما أساتذتى فقد تركوا أثرًا لم يُمحَ من ذاكرتى، وهذه صورة قلمية للمدرس الذى دَرّس لى فى السنة الرابعة وترك أثرًا كبيرًا فى شخصى بجديته وصرامته، كان هذا وصفى له رحمه الله.

كان هذا جزءًا من مجتمع عشته فى المدرسة الابتدائية مع زملائى، أما أساتذتى فقد تركوا أثرًا لم يُمح من ذاكرتى؛ لأن كل واحد منهم له فى نفسى أثر من التعليم ومن التربية ومن الأخلاق التى تعلمتها منهم.

هذا الأستاذ «إبراهيم أيوب» رحمه الله، صورة المعلم حين يتوحد مع الإخلاص والتفانى والالتزام والجدية التى تصل أحيانًا إلى حد الصرامة، هكذا كان هذا الرجل الذى علمنا أن الواجب لا بد أن يُؤَدَّى على أتم صورة، وأن من يعطل إمكانات نفسه ولا يؤدى ما عليه من واجب لا بد أن يعرف أنه أخطأ وأن يعاقب، وأن من يتعب ويبذل الجهد لا بد أن يُشكر، ولا يمكن أن يستوى من يعمل ومن لا يعمل، وهذه هى التربية المثمرة. ولا تزال هذه الصور تمر أمامى الآن عندما يبدأ حصته بأسئلة سريعة نتبارى فيها، كانت تسمى «أسئلة العقلى» فيوجِد حالة من التنافس بيننا ويفرض على الكسالى أن يستعدوا وإلا سيعاقبون، وهذا ملمح تربوى تعلمته من هذا المعلم الكبير.

والأستاذ «جلال السمادونى»، الذى ذكرت أن والدى ـ رحمه الله ـ لما أصر على أن أدخل المدرسة وأصر على أن أتعلم كان هو من الداعمين المناصرين المدافعين، وأنه هو الذى وصف لوالدى ـ رحمه الله ـ مكان

وكيل الوزارة فى شبين الكوم، وكانت المقابلة التاريخية التى وضعت أول لبنة فى بناء تعليمى. وفى أول يوم نخطو إلى ساحات العلم كان فى استقبالنا بوجهه الراضى وعقله الواعى ونفسه الكبيرة وحزمه اللازم. وفى أول درس من دروس التربية كان فارس الميدان الذى لايبارى أدبًا ودينًا وقدوة ومثالًا، وفى الحياة كان معنا أبًا حنونًا صادقًا شفوقًا سهلًا لينًا. هذا أبى بعد أبى هذا حبيب أبى وحبيب أبى حبيبى، وهو كذلك أحبه لأنه يحب الناس ويحبه الناس، أحبه لأنه علمنى أن أحبه لأنه سهل لين وقور مشارك مسالم طيب..

أما الأستاذ «عبد الحميد حنضل»، هذا المعلم القدوة والمربى المثال الذى اجتمعت فى شخصه صفات من عاش الدين واقعًا بفهم صحيح. فهو معلم وسيلته الأخلاق وهدفه جيل يخدم نفسه ودينه ووطنه، ونحن نشهد له بذلك. فقد كان يصلى بنا جماعة فى المدرسة، وكان يثيب المجتهد ويعاقب الكسول، وكان جادًا فى صالة الدرس، فإذا خرجنا أصبح هاشا لنا باشًا بوجهه الراضى دائمًا.

وأما هذا الأديب والمثقف والناقد والمعلم والمربى الأستاذ «على العليمى» فقد كان كل هؤلاء فى شخصه. شربت وزملائى منه الالتزام وحب العلم والقراءة، وهو أول من علمنا أن نقطف مختارات مما نقرأ، إذ كان يكلف مجموعة من تلاميذه بأن يكون لكل منهم دفتره الخاص يجمع فيه ما يراه مناسبًا للاحتفاظ به، ولم أكن من هؤلاء وقتها، وكان هذا مما جعلنى أجد فى نفسى منه، ولكنه بعد أن كبرت وكنت أزوره فى بيته وأعرض عليه ما أكتب سألته: لماذا لم تخترنى ضمن هذه المجموعة؟ فقال: لقد كنت مشفقًا عليك من الكتابة، خصوصًا أن هذا الدفتر يحتاج

لمجهود كبير فى كتابته وتزيينه. هكذا كان الرجل والمعلم والمربى والأديب الأستاذ الكبير على العليمى، ذلك المثل الذى يصر على الطموح والنجاح بل والإصرار على النجاح فى زمن معاكس.

لقد كان الأستاذ العليمى الوحيد من أبناء جيله الذى واصل الدراسة المنهجية بعد دار المعلمين، فالتحق بكلية الحقوق وحصل على الليسانس، ليضيف إلى دوائر ثقافته دائرة القانون والشريعة والدراسات المقارنة بينهما. وقبل ذلك كان عقله قد احتواه القرآن لفظًا ومعنى وأصبح صدره مملوءًا بنور القرآن وفيضه، فدخل به إلى دار المعلمين ومنها أصبح قائمًا بالكلمة عاملًا بها موصلًا جيدًا بل وممتازًا لها. ومما أسعدنا به القدر وحبانا به أننا ارتشفنا الكلمة مبنًى ومعنًى ودلالةً وسلوكًا ومشاعر على يديه، كما سقانا عذوبة العطاء ونعمة الولاء للعلم والقراءة والبراء من الأمية والجهل والتخلف، وأحدث فى أنفسنا طموح التفوق فى العلم والأخلاق والسلوك، كل هذا كان فيضًا من شخصيته شديدة الاعتزاز بالنفس فى غير تكبر عظيمة الاحترام للذات بلا تصنع.

والأستاذ على العليمى ـ رحمه الله ـ أديب كبير وشاعر رقيق وناقد له رؤية فى النقد الأدبى فى الشعر والنثر، وقد أطلعنى على قصائد من شعره رائعة ودراسات نقدية رصينة عن بعض الشعراء الكبار، وقرأتها له فى أقوى مجلة أدبية صدرت فى مصر وهى مجلة الرسالة التى كانت تنشر لأساطين الأدب فى هذا العصر كالعقاد وطه حسين والمازنى.. ولقد كان هذا المعلم حافزًا لى بشخصه وعلمه وطموحه الذى لاحد له، رحمه الله.

وبقى فى هذه الفترة أن أرسم صورة لهؤلاء الذين كان لهم تأثير بالغ

بأخلاقهم وسمتهم وشخصياتهم، ليس فى نفسى فقط ولكن فى نفس كل من عشت معهم فى قريتى الصغيرة، هؤلاء الذين حملوا فى قلوبهم نقاء وصفاء وحبًّا خرج للناس فى حياتهم اليومية. هؤلاء الذين أسهموا فى زرع القيم التى رأيت ثمارها على أشجار الحياة دانية، هؤلاء الذين كان سعيهم من أجل الإنسانية والإنسان. فلا يوجد مجتمع يتسم بالفضيلة ويتشح بالكرامة وينعم بالقيم الأصيلة إلا وتكون فيه هذه الفئة التى تضرب المثل على ذلك، وهذه شهادة ممن عاش معهم واقترب منهم وهذا ما رآه وشاهده من هؤلاء.

منهم الحاج «محمود عطيوى» الذى كان يلقبه الناس فى قريتى الحاج محمود «أفندى»، ولعلها كانت تقديرًا لشخصه وماله فى نفوس الناس من تبجيل واحترام. هذا الرجل لم يكن عنده خزائن أموال ولابنايات ولا أرصدة بنوك، ولكن كانت عنده خزائن الأدب وبنايات المواساة وأرصدة الاحترام الإنسانى وأرض واسعة لاحد لها مزوعة بالإخلاص مثمرة بالحب مورقة بالود، نابت فيها الكلام الطيب والسعى الدءوب من أجل مسكين أو فقير. لقد قام الحاج حافظ الفلاح حياته على عقد موثق بينه وبين ربه، أعطى من نفسه الصدق والإخلاص فأعطاه الله الرضا والقبول وحب الناس والثراء الذى لم يغير شيئًا فى شخصه بل زاده تقى وصلاحًا. أذكر وأنا صغير أننى كنت لا أُطاق من «الشقاوة الطفولية» وكان بعض الناس يضيقون بى، أما هو رحمه الله فكان يداعبنى ويخفف من حدتى بمرحه الخفيف معى وأنا الطفل الصغير. ولا أنسى عندما كان يأتى إلى المسجد وينتحى جانبًا ويمسك بالمصحف ويقرأ القرآن، وكنت دائمًا ما تراه فى مسجد سيدى إبراهيم بن أدهم الذى كان

يعتبره أغلى عنده من أحد أبنائه، فكان شغله الشاغل إلى أن لقى ربه بانيًا له وراعيًا ومنفقًا عليه.

وهذا رجل فقير جمعتنى به صداقة متينة على الرغم من فرق السن بالسنين الطوال، ولكن عندما ترتاح القلوب فلا تسأل عن السنوات والأيام. هذا الرجل الفقير ملأ الغنى نفسه وروحه، هذا الرجل الذى كانت لى معه مواقف أعتز بها تعكس إنسانية متجردة، تكاد تصل إلى ملائكية البشر الذين يعيشون بأجسادهم على الأرض وأرواحهم تغرد فى السماء، إنه «أحمد الفرخ» الذى كان فى مشيته يلقى بجسده النحيل جهة اليمين قليلًا ثم يدفع جسده للأمام، وكأنه كان يصارع ظروفه الصعبة فى زمان ليس فيه للطيبين مكان. كان يمشى على الأرض هونًا، وكان يتغطى بالليل إذا حل، وكان الليل يربت كتفيه كأنه صديق يواسى صديقه الذى جاءه ليرتاح عنده.

كنت أذهب إليه فى مكان ألقاه فيه عند مدخل قريتنا الصغيرة حيث لاتجد الناس إلا قليلًا. كان يحكى بعدما يرفع رأسه وترتسم على وجهه ذكريات ماض عاشه صغيرًا وكان وقتها فى آخر عقده السادس. حكى لى عندما دبت قدمه شارع رمسيس وشارع كلوت بك وشارع الجمهورية ليعول نفسه وأهله. كانت حياة صعبة لكنها لاتخلو من جمال. حفظته فطرة سليمة وأخلاق عاشها زمنًا فى قريته، فوقت أن كان أقرانه يلقون بأنفسهم فى مراتع الهوى وحانات الشرب كان هو عاشقًا لأم كلثوم، فكان يدخر من قروشه القليلة ما يستطيع به أن يقف فى نهاية صفوف حفلات أم كلثوم ليستمتع بصوتها فى هذه السن الصغيرة، كانت تحتويه عندما ينطق بكلمات أغانيها حالة من تلبس

المعنى لكيانه، وكان يسأل وكثيرًا ماكان يسأل: يا أستاذ مين اللى قال الكلام اللى قالت فيه أم كلثوم:

أكـادُ أشُـكُ فى نفسى لأنى أكـادُ أشـكُ فيك وأنـت مني

ويظهر ولعه بالمعنى وبصوت أم كلثوم وهو يشدو بالكلمات، فأرد عليه بأنه الشاعر الأمير عبد الله الفيصل، فيعجب كيف كتب هذا الكلام.

كان يحس المعنى ويعايشه إلى حد الهيام، وكان يحفظ كثيرًا من كلام أغنياتها وخصوصًا القصائد، وسألنى مرة عن معنى بيت فى قصيدة حديث الروح لمحمد إقبال التى يقول فيها:

ومـعـدِنَـه تـرابـىٌ ولكن سَرَت فى لفظهِ لغةُ السماءِ

وسألنى عن معنى:

قيثارتى مُلئت بأنَّات الجَـوى لا بدَّ للمكبوت من فيضـانِ

وهذا يدل على حس راق وذوق عال ونفس تعشق الجمال.

وكان عاشقًا لعبد الوهاب، وكان يستخرج من أغانيه دررا من المعانى.. أذكر أنه وقف أمامى مرة وأبدى إعجابه الشديد بفقرة من أغنية الصبا والجمال وأخذ يرددها مفتونًا بالمعنى، هذه الفقرة تقول:

قتلَ الـوردُ نفسه حسدًا منك وألـقـى دِمـاهُ فى وجنتيك

والـفـراشـاتُ مَـلَّـت الـزهـرَ لما حدثتها الأنسامُ عن شفتيك

ثم يتعجب من هذه المعانى الجميلة، ويقول وقد أخذه العجب: شوف لما يقول فى الورد فى أغنية يا ورد:

يا ورد يا أحمر قل لى مين جرحك
جرح شفايفك وخلى على شفايفك دمك
أبيض غار النهار منه خجول محتار
باسه الندى فى خده وجارت عليه الأغصان
أصفر من السقم أم من فرقة الأحباب

لعله كان يحتمى بهذه المعانى الجميلة والكلمات الرقيقة والمشاعر الحية من أثقال زمن لا يرحم.

عاش أحمد الفرخ حياته لم يحس به أحد؛ لأنه كان يؤثر العزله كأنها قدره، يحمل فى نفسه أخلاق رجل ريفى لم يتسلل إليه طمع ولازاره حقد ولا ملكته نزوة ولا ألفه طيش ولا نزق.

تعلمت منه كيف يعيش الإنسان معنى جميلًا لم يخدشه قبح ولا أعاقه ذنب ولا اغتاله فحش، وهو الذى لم يقرأ كتابًا، لكنه كان أستاذًا فى كتاب الحياة، فعاش حييًا كريمًا سليم العقل والقلب والروح، رحمك الله يا عم أحمد رحمة واسعة.

وبقى أن أختم هذه الشخصيات الحياتية بهذه السيدة الكريمة العظيمة، التى تضرب مثلًا للمرأة المعيلة التى تقوم على أولادها بعد فقد العائل، فإذا هى بقوة الروح والنفس وعزيمة من حدد لنفسه هدفًا يعرف أن له ثمنًا كبيرًا من نفسه وعقله وصحته بل من حياته كلها. هذا نموذج عشت معه وعرفته، فعرفت القوة والصلابة، وعرفت الإخلاص عندما يُصنع فى مصانع الأنفس الكبيرة، الحاجة «فاطمة قشطة» هذه السيدة التى رحل زوجها وترك أربعة أولاد وبنتين ولم يترك شيئًا سوى بيت كبير وبهيمتين وقراريط قليلة، فقامت وسعت ولم يغمض لها جفن ولا نامت

لها عين ولا ارتاح لها جسد، فهذه الأفواه تريد أن تأكل، فوقفت وقوف امرأة صامدة قوية تفلح الأرض، وحولت بيتها إلى مرعى للطيور لتطعم أولادها، وغذتهم الأمل الذى يدفعهم لأن يكونوا رجالًا، ولم تلن قناتها يومًا وهى تجابه المصاعب والعوائق وهى تمشى وحدها فى طريق وعر صعب، ليس معها أحد إلا توكل على الله وثقة به سبحانه.. وما زالت تراها عينى مثالًا على الإخلاص والتفانى وأداء الواجب والإتقان وكل القيم العظيمة التى أراها علامة عليها.

بقى أن أشير إلى شخصية الحكيم، ذلك الشاب الذى تعرفت عليه فى سنوات صباى وبداية الشباب، الأخ الصديق «الدكتور مجدى عبد المقصود» الذى كان موئلًا للشفاء ومصدرًا لأمانى النفسى وإجابة وافية عما يعتمل فى نفسى من مداهمات الأسئلة، وشرحًا لمقتضيات الطموح. كنت كلما اشتكيت من مرض عارض أذهب مع أبى إليه فى غرفة خارج بيت أبيه فى قرية بجوارنا، فيستقبلنا بوجه يشفى قبل أن تمتد اليد للكشف، وكلمات تربت الكتفين، ومناقشة هادئة تنسيك ما تعانيه من وجع، وبعد هذا كنا ننسى ما جئنا من أجله، لأن النفس قد شفيت والروح قد سمت فلا بد أن يهدأ وجع البدن. هذا الشاب الذى أصبح حكيمًا بمفهوم زماننا السابق، وما زال يمارس الحكمة بكونه طبيبًا لأن الطب بلا حكمة كالجسد بلا روح، وها هو قد ارتفع بقريته كفر وهب حتى أصبحت القرية المتكاملة المثالية على مستوى مصر كلها، واختارتها الأمم المتحدة كأحد أهم القرى على مستوى العالم بفضل هذا الحكيم الذى يمتهن الطب بإنسانية لامثيل لها.

قبل أن أترك الحديث عن القرية التى عشت فيها، وقبل أن أنطلق خارجها لأشتبك فى معارك إثبات الوجود، كان لا بد أن أحكى عن

هذه الشخصيات التى كان لكل شخصية منها تأثير فى جانب من جوانب الحياة التى عشتها معهم، ولكى تكون صورة واقعية لما كانت عليه القرية المصرية فى هذا الوقت. وإذا كان العالم لا يمكن أن يخلو من الشر فى كل ركن منه، فلعل شمعة من الخير قادرة على نشر نورها وتجلية ظلمة الشر ولو كانت دنيا بكاملها، وهذا ما عايشته، وعاينته، وهذا ما جعلنى أعرض عن التلميح بمن نصبوا أنفسهم رعاة للشر ودالين عليه، أولًا لأن ذكرهم شرف لهم ولايجوز لمثلى أن يمنحهم هذا الشرف، وثانيًا لأن الأخلاق التى تعلمتها من هؤلاء الأخيار تلزم مثلى بالترفع وإسداء المعروف إلى راعى الشر حتى يراجع نفسه أو تصدمه حقيقة الشر فيرجع أو يهوى مع الشيطان حيث جهنم الدنيا وجهنم الآخرة.

نور الكهرباء

ظللت عشر سنين من عمرى فى هدوء ما قبل الكهرباء، حيث البيوت تغلق أبوابها بعد صلاة العشاء، وحيث الناس تجلس مع بعضها البعض يتسامرون قبل أن تغتال الكهرباء تلك السكينة والهدوء بنورها الذى جلب الحضارة نورًا يرفع الظلمة عن الأشياء ويجليها، ولكنه أصاب الناس فى قريتى بتحول فى مسار حياتهم المعتاد، فقد كانوا ينامون مبكرًا ويبدأون يومهم بصلاة الفجر ويضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله سعيًا وكدًا فى سبيل قضاء حاجاتهم، وكلهم يقظة يملؤهم النشاط وتغذوهم حاجتهم لكفالة بيوتهم وعيالهم.

لقد تبدل كل هذا إلى السهر ليلًا بفعل نور الكهرباء الذى أضاء كل شىء فى القرية، ويااليت الأمر بقى على حاله من سير الحياة ولكن الذى حدث أن الحضارة بقدر ما أعطت ووهبت للقرية فقد أخذت بل اقتصت

منها فى مجال الهدوء النفسى والعلاقات الاجتماعية وتغير العادات التى تميزت بها القرية المصرية. كل ذلك لاينفى ما أعطاه مصباح الكهرباء لإنسان القرية من حضارة.

وأذكر هذه الفترة جيدًا حين بدأ العمال فى غرس أعمدة الإنارة، وكنت وقتها فى السنوات الأخيرة من الابتدائية فى سنة 1974 و1975، وكيف كان العمال يحفرون حفرة عميقة ثم يمسكون بالعامود المصنوع من الحديد ووزنه ثقيل جدًّا من أوله ومنتصفه وآخره ويرفعونه من على الأرض أولًا ثم يفردون أيديهم إلى أعلى جميعًا ويرفعونه شيئًا فشيئًا حتى يقف العامود فى حفرته، ثم يضعون الأسمنت والرمل المعجونين بالماء فى تلك الحفرة ثم يسندون العامود بعض الوقت حتى يثبت ويشتد الأسمنت، وها هى الأعمدة بشكلها الكائن شاهدة على هذه الصور القديمة.

وكانت فرحة كبيرة غمرت كل أبناء القرية، وبدأ كل بيت يستعين بصنايعى الكهرباء لكى يحفر فى الحوائط كى يضع المواسير التى يمرر فيها الأسلاك. وجاء إلى بيتنا شاب طويل اسمه محمد كان ذا فكاهة خفيف الدم يخلط عمله بالنكات والقفشات الجميلة، وحفر فى صالة الدهليز وفى كل غرفة من الغرفتين لمصباح، وداخل البيت حيث السلم الأرضى مصباح أيضًا، ومرر فى المواسير الأسلاك. وكنت شغوفًا جدًّا برؤية المصباح الكهربائى الذى درسنا فى المدرسة أنه مجوف وأنه يتكون من سلك من مادة التنجستين، وأن الذى اكتشفه وأضاء الدنيا به هو العالم الأمريكى أديسون سنة 1879، وكانت هناك صورة فى الكتاب المدرسى، وأصبحت شغوفًا بأن أراه وتحققت الرؤية فى الشوارع حيث تمت إضاءتها أولًا، وكانت فرحة من أهم ما عاشت هذه القرية الصغيرة،

حيث تحولت الشوارع التى كانت تغزوها الظلمة منذ أن ترحل الشمس إلى نهار بفضل مصابيح الشوارع المعلقة فى الأعمدة، فى أعلى كل عمود منها ذراع منتهية بمظلة بيضاء صغيرة فوق المصباح لكى يتركز نوره فى الشارع.

وأذكر أن البيوت عندما أضاءتها مصابيح الكهرباء تحول كل شىء فى هذا المجتمع الريفى الذى كنا نعيش فيه، فالنور عم البيوت ويسر على الناس جميعًا كثيرًا فى حياتهم، فأصبح الفلاح يستطيع أن يذهب فى أى وقت من الليل فى ضوء الكهرباء للرى أو لمتابعة مواشيه التى نعمت هى أيضًا بما نعم به البشر من نور الكهرباء، حيث يضغط الفلاح فى الليل على زر من الأزرار خارج الزريبة فيضىء المصباح فيدخل ليطمئن على مصدر الخير له ولأولاده. وكذلك التلاميذ الذين كانوا يحنون رؤوسهم على طبلية المذاكرة أمام اللمبة البنور، جاء نور الكهرباء لكى تتحول الطبلية إلى مكتب فلا يجدون التعب والعنت الذى كانوا يجدونه مع اللمبة البنور والطبلية. ولأن أبى كان غالبًا ما يصلى الفجر ويتوكل على الله لعمله فى الجيش، فقد كانت أعمدة الكهرباء بنورها الأحمر تؤنسه فى طريقه الذى كان مظلمًا قبل أن تُغرَس الأعمدة.

وبعد قليل، دخلت البيوت أجهزةُ التليفزيون التى كنا نشاهدها قبل دخول الكهرباء عند جدى لأمى، فقد كان ضمن ثلاثة فى البلد فقط لديهم أجهزة تليفزيون تعمل بالبطارية، وكان يتم شحن هذه البطارية كل فترة، وكنا نذهب إلى بيت جدى يومى الاثنين والخميس من كل أسبوع كمكافأة على الاجتهاد فى الدراسة، وكنا نُحرَم أحيانًا من هذه المكافأة حين يتسرب الكسل إلى المذاكرة. وكنا نهيم بمباريات المصارعة

حيث هذه الأشكال البشرية المنفوخة العضلات وهذا الضرب الذى تحس معه أنهم ليسوا بشرًا عاديين، وكانت تعليقات جدى تعكس المتابعة الدقيقة حتى لأسماء اللاعبين، وكان يشجع اللاعبين ويظل يضع كفًا على كف وكأنما يسدد هو الضربات، وكان يجلس وأمامه براد الشاى، وكنا إذا دخلنا عليه ينادينى ويجلسنى بجانبه وينادى بالقشطة التى كنت أحبها جدًّا، فيأتى ساندوتش القشطة فيعلقه فى إصبعى يدى الشمال وأترك نفسى مع الساندوتش وعينى مع المصارعة ومع حركات جدى التى كانت تسترعى انتباهى وانتباه كل من فى الغرفة. أما الفيلم العربى الذى كنا ننتظره بشوق ليلة الخميس من كل أسبوع فكان من أكبر المكافآت لنا.

هذا قبل وجود الكهرباء، لكن بعد أن دخلت الكهرباء بدأت أجهزة التليفزيون تغزو البيوت، ومعها بدأت حياة الفلاحين تتغير، فالفلاح الذى كان ينام بعد صلاة العشاء أصبح يقضى جزءًا كبيرًا من الوقت أمام هذه الشاشة الزجاجية التى تتحرك عليها صور الأشخاص والأشياء.

وبعد سنوات قليلة دخل التليفزيون كل بيت، وبدأ الناس فى متابعة المسلسلات ومباريات الكرة التى كانت مشاهدتها مباراة فى التشجيع أيضًا، خصوصًا ونحن بيت زملكاوى بالكامل. وأذكر فى هذه الفترة من المسلسلات التى تركت أثرًا واسعًا مسلسل «الجنة العذراء» وكان بطولة كريمة مختار ومحمود السباع وإخراج نور الدمرداش، وكان مسلسلًا رائعًا أبدعت فيه الفنانة كريمة مختار، ومسلسل «أبناء فى العاصفة» الذى كنا ننتظره جميعًا، وكان يحكى عن مجموعة أبناء كان منهم عبد الله غيث وعادل المهيلمى ومحيى إسماعيل الذى أدى دور الأبكم المريض النفسى ببراعة منقطعة النظير وكان أبوهم الممثل القدير عبد الرحيم الزرقانى، وكان لعبد الله غيث عبارة فى المسلسل كنا نرددها لأنه كان يقولها

بشكل ملفت جدًّا ومؤثر جدًّا وهو يحذر أخاه محيى إسماعيل: «الأرض هاتروح منا ياله». وكانت هذه المسلسلات تدعو إلى قيم الحفاظ على الأرض والأخلاق السوية والدعوة إلى حب الأوطان ومصير من يحيك المؤامرات، وكان أجمل يوم عندنا يوم الأحد وهو اليوم المفتوح فى التليفزيون، من العاشرة صباحًا حتى الثالثة بعد الظهر، حيث مجموعة من الفقرات، منها مسابقات وفيلم من الأفلام العربية، وينتهى اليوم بأغنية لأم كلثوم التى سيكون لى مع أغانيها محطة مهمة فى مسيرة الحياة.

ولا أنسى موقفين فارقين فى حياة أسرتى، أولها يخص أمى ـ رحمها الله ـ عندما فاجأها أبى ـ رحمه الله ـ بجهاز «بوتاجاز مصانع» هكذا كان اسمه بعد زمن طويل مع وابور الجاز والكباس وسواد «الهباب» الذى يخلفه الجاز، والجرى وراء عمى مغاورى لشراء الجاز للوابور وأعطال الوابور وإبرة تسليك مجرى الجاز فى الوابور التى كانت يمكن أن تكون سببًا فى تعطله عن الاشتعال، وها قد جاء الفرج بهذا البوتاجاز الذى تحلقنا جميعًا حوله، وبدأ الوالد يشرح لنا ولأمى كيف يعمل وكيف نحافظ على الأمان بغلق الأنبوبة، وكانت تلك نقلة حضارية واسعة فى سبيل راحة أمى التى عانت طوال هذه السنوات. والموقف الثانى عند شراء الغسالة الكهربائية، هذه النقلة الكبيرة حيث كانت أمى تضع الملابس كلها فى «الطشت»، وبجانبها وابور الجاز وعليه وعاء من الماء يغلى، وهى تجلس أمام الطشت الواسع تختار الملابس البيضاء لتضعها فى الوعاء الذى يغلى على الوابور، ثم بعد فترة تقوم لتخرج هذه الملابس لتضعها مرة أخرى فى الزهرة الزرقاء، وهى عبارة عن بودرة زرقاء كنت أشتريها لأمى من الدكان بقرش صاغ حتى تبدو هذه الملابس ناصعة البياض، وكانت أمى تظل يومًا كاملًا تغسل ثم تذهب إلى سطح البيت لنشر الغسيل، وها هى

الغسالة الكهربائية حلم أمى الذى تحقق أخيرًا، حيث كان يوم الغسيل من أشد الأيام تعبًا وشقاءً فقد كانت تسقط من التعب فى آخر هذا اليوم.

هكذا حولت الكهرباء طبيعة الحياة فى قريتى تحولًا فيه من الإيجابيات التى لا ينكر فالنور قد حل والظلمة قد رحلت، النور سهل على الناس حياتهم وأضاء العقول بتسهيل التحرك والقضاء على ترهات الريف التى كانت تنتشر بين الناس، كالجنية التى تخرج من الترعة والقصص الخيالية لبعض من لم يتعلموا، وكذلك التحول إلى استخدام الأجهزة التى أراحت فئة من مجتمع الريف وهم السيدات وفتحت آفاقًا لمشاهدة العالم ومعرفة أخباره، وهذا أهم إنجاز حضارى للإنسان عمومًا حيث أصبح يعيش اللحظة من خلال متابعته لما يجرى، صحيح أنه ليس فاعلًا بأى دور لكن على الأقل كانت خطوة مهمة بالقياس لحياته.. لكن ما يلفت النظر أن «أديسون» قد أضاء الدنيا بهذا الاكتشاف ولم ننعم به فى قريتنا إلا بعد مائة عام، أليس هذا ظلمًا للإنسان وللإنسانية عندما يتركون الظلام يعشش فى البيوت والعقول وعندما ينعم به بشر ويحُرم منه آخرون.. هذا الإنجاز الحضارى غير المسبوق فى قريتى كان له أيضًا سلبياته الكبيرة، وهكذا الحضارة لابد لها من ثمن يدفعه الإنسان.

90٪ ونهاية مرحلة

نهاية المرحلة الابتدائية كانت تسمى على أيامنا «مرحلة القبول»، وكانت من أهم المحطات فى رحلة الدراسة حيث يتبين منها مدى قدرة الطفل على مواصلة الدراسة والتفوق أو على اكتفائه بهذه المرحلة فقط، وقد يركن التلميذ فى جانب الطريق قبلها ليتعلم مهنة يعيش منها عندما

لا يفلح فى التعليم وخاصة إذا كان فقيرًا لا يقدر على نفقات التعليم. وكانت هذه السنة الدراسية شديدة الأهمية حيث كانت لا تقل فى الاهتمام عن نتيجة الثانوية العامة والإعدادية، وكانت الأهالى تحشد جهودها لهذه السنة المهمة، وأذكر أننا كنا نذهب فى درس خصوصى عند الأستاذ «حسنين القاضى»، ومما أذكره أننى كنت أكره الرياضيات وأتعامل معها تعامل المضطر الذى يجد نفسه مجبرًا على التعامل مع شىء لايحبه ولايطيقه.

وأذكر أنه عندما بدأنا نتعامل مع مادة الهندسة كان لابد لنا من استعمال الفرجار حيث عموده الأول مركب فيه السن الذى يثبت على الورقة والعمود الآخر به القلم الرصاص المثبت الذى يلف بخطه لرسم الدائرة المطلوبة بعد تحديد القطر عن طريق المسطرة، وقد كان ذلك تحديًا كبيرًا لى. ولكن ـ كما هى العادة ـ ظللت أبحث عن وسيلة وظللت أجرب حتى اهتديت إلى طريقة لإنجاز المهمة وهى تثبيت السن بقوة عن طريق الضغط على رأس الفرجار بفمى وبأسنانى حتى يثبت تمامًا ثم يسلم الفم رأس الفرجار إلى إصبعى يدى الشمال وأضغط قليلًا بصدرى وأحرك بإصبعى الفرجار حتى تكتمل الدائرة تمامًا، وكانت مهمة شاقة، لكن كنت عندما أتمها أشعر براحة لامثيل لها، وأحيانًا كنت أفشل فأعاود حتى أتم رسم الدائرة. كذلك لى تجارب شاقة مع آلة هندسية أخرى وهى «المنقلة»، وهى آلة لقياس الزوايا مصنوعة من الزجاج أو البلاستيك الشفاف وكانت مما يثقل على مثلى استعمالها لأنها صغيرة رقيقة لا أستطيع أن أتحكم فيها، لذا كنت أقيس الزوايا عن طريق تثبيتها وتحديد الزاوية مرة بعد مرة حتى ينقضى الأمر، وكنت أحس عند استعمالها بضيق الَّنفَس وما أن أنتهى حتى أطلق الزفرات لإعلان الانتهاء من هذه المحنة. وبالنسبة

للمسطرة، فقد كانت تتعبنى جدًّا لأنها طويلة، وكنت إذا ثبتها وبدأت أخط الخط تحتها فقد كانت تتحرك وتنحرف عندما أصل إلى منتصفها تقريبًا، فينزل الخط لكى يشرب من الترعة كما كنا نتندر ساعتها.. لذا، ومع أسباب أخرى كنت لا أطيق مادة الرياضيات التى سيكون منها أكبر صدمة فى حياتى الدراسية فيما بعد.

أما بقية المواد، كاللغة العربية والتاريخ والجغرافيا فكنت من المتفوقين فيها. وأذكر واقعة مهمة فى امتحانات اللغة العربية التى كانت درجاتى فيها دائمًا متقدمة، ففى شهر من الشهور أخفقت ونزلت درجتى فيها كثيرًا فعلم الأستاذ جلال السمادونى بعدما أنبأه صديقى وابنه محمد، فنادانى وأمرنى بإحضار الكراسة وبيّن لى الخطأ، وقال لى بدل البكاء يجب أن تعود فى الشهر القادم بنتيجة أفضل، وفعلًا ذهبت إليه فى الشهر التالى ورأى التغيير الذى حدث فكان مسرورًا بما رأى، خصوصًا أنه من المدرسين الذين كنا لانهاب أن نكلمهم وهذه إحدى الملامح التربوية فى شخصية هذا الرجل الذى ننعم إلى الآن بحسن صحبته وأبوته.

ومما أذكر فى هذه السنوات لوحة الشرف للعشرة الأوائل على الفصل كل شهر بناءً على نتيجة الامتحانات وبناءً على سلوك كل تلميذ فى تعاملاته مع زملائه، وكنت لا أتصدر العشرة وأيضًا لا أن أكون من آخر ثلاثة وكان ترتيبى يتراوح بين الثالث والسادس، لأن الأول كان محجوزًا دائمًا لزميلة أصبحت بعد ذلك طبيبة أسنان، وبعد اسمها يبدأ التنافس بين الجميع.

ومما أذكر فى السنتين الأخيرتين، مباريات الكرة فى حوش المدرسة التى كانت حامية وحماسية وكنت أنا أحد نجومها، وكان لى مشجعون

كُثر من زملاء الفصل والمدرسة ومن المدرسين، وكان الحوش يسع لفريقين أربعة أربعة، وكانت تُطلق الصيحات والهتافات، وكانت الكرة فى المدرسة من الجلد لذا كانت مبارياتها لها طعم آخر غير مباريات الشارع التى تكون عادة بالكرة الشراب.

وفى نهاية السنة السادسة، تحدد الامتحان فى المدرسة الثانوية بقويسنا ولابد من لجنة خاصة أكون فيها مع تلميذ أقل منى سنًا يقوم بكتابة الإجابة التى أمليها عليه، وكانت هذه أول مرة أخرج فيها لامتحان خارج المدرسة الابتدائية. وكان الأهالى يأتون مع أولادهم إلى المدرسة وينتظرونهم حتى ينتهوا من أول مادة ثم يخرجون ليجدوا الساندوتشات مع زجاجة البيبسى جاهزة، ثم يدخل التلاميذ مرة أخرى للمادة الثانية، وهذا ما فعله أبى الذى فرغ نفسه تمامًا لهذه المهمة طوال أيام الامتحان. وكان عندما أستعد للدخول يوصينى بأن أُسمى الله وأن أقرأ آية الكرسى، وألا أتسرع فى الإجابة وأن أراجع الورقة أكثر من مرة.

واللجنة الخاصة التى خصصت لى كانت عبارة عن غرفة صغيرة وكان التلميذ الذى جاء ليكتب من الصف الخامس الابتدائى ولم يكن من البلدة، لكنى فضلت أن أكتب بنفسى فى هذه السنة، لأنى وجدت ساعتها أن طريقة الإملاء لاتسعفنى فآثرت أن أكتب بفمى، فلما انتشر الخبر فى لجنة الامتحان كان المدرسون والمراقبون يختلسون الوقت لكى يشاهدوا خط هذا الولد الذى أصبح حديث لجنة الامتحان، ومما أفادنى أن ورقة إجابتى كانت منظمة بالرغم من أننى كنت لا أتقن استخدام المسطرة، فقد أعاننى الزميل من الصف الخامس على تنظيم الورقة وتسطيرها وهذا ما كنت أحتاجه.

وانتهت الامتحانات وبعد عدة أيام ظهرت النتيجة وحصلت على مجموع 90٪ حوالى 270 من 300، وكانت فرحة غامرة حيث أصبحت بداية المشوار ناجحة ومبشرة، وكنت ضمن الأوائل فى قريتى، وكان هذا النجاح بهذا الشكل يدعو إلى الاطمئنان على الخطوات القادمة، فمن استطاع أن يحصل على هذا المجموع فهو يستطيع بالتالى مواصلة النجاح وتخطى كل العقبات التى تواجهه، لأنه سوف لن يصادف أكثر مما صادفه قبل ذلك.

واستعد رضا لمرحلة جديدة بعد هذا النجاح الباهر، مرحلة الخروج إلى مجتمع جديد لا يعرفه، مرحلة التعرف على أصدقاء جدد وزملاء آخرين، مرحلة مدرسة المساعى الإعدادية التى سبقه إليها أخواه حسن وياسر، وحكايات عن المدرسة التى أشتاق أن يكون أحد تلاميذها. لكن كيف كان الاستقبال من الناس ومن المجتمع الجديد ومن زملاء سيصبح لهم شأن فى حياته فى قابل الأيام.